جامعة الأزهر
كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنات بالزقازيق
المجلة العلمية

من أسرار ترتيب المعاني في النظمِ القرآني
(دراسةٌ تفسيريةٌ)

إعداد

إبراهيم علي علي عامر

أستاذ مساعد بقسم التفسير وعلوم القرآن
كلية أصول الدين والدعوة بطنطا

(العدد الرابع عشر)
(الإصدار الأول ١٤٤٥هـ - ٢٠٢٤م)

علمية- محكمة- نصف سنوية

من أسرار ترتيب المعاني في النظمِ القرآني
(دراسةٌ تفسيريةٌ)

إبراهيم علي علي عامر
قسم التفسير وعلوم القرآن، كلية أصول الدين بطنطا، جامعة الأزهر، مصر.
البريد الإلكتروني: ebraheemaamer.27@azhar.edu.eg

الملخص:

يهدف البحث إلى الكشف عن أسرار ترتيب ورود المعنى الواحد في النظم القرآني الكريم، وفق ترتيب المصحف الشريف، ومحاولة استظهار ما في ذلك الترتيب من وجوه التناسب وبيان معاني كلام الله تعالى؛ وصولًا إلى إدراك شيء من مداخل الإعجاز القرآني غير المحدود ومعالمه.

ويتكون البحث من تمهيد وثلاثة مباحث وخاتمة؛ وتناول تعريف المصطلحات العلمية. وبيان منزلة ترتيب المعاني من اللغة والنظم والتفسير، ونماذج لترتيب المعاني في القرآن الكريم كله. ونماذج لترتيب المعاني في السورة الواحدة. وقد انتهج البحث منهجًا تكامليًا، جمع بين: الاستقراء والتحليل والوصف. وخلص البحث إلى نتائج، أهمها: أن لترتيب المعاني منزلة عالية في كل من اللغة والنظم والتفسير، وأن ترتيب المعاني يعد أحد مداخل إدراك إعجاز نظم القرآن الكريم، وأن كل موضع من مواضع الدراسة يكشف عن وجه من وجوه براعة النظم القرآني، مع دقة التعبير، وروعة المناسبة.

الكلمات المفتاحية: الإعجاز ، أسلوب القرآن ، بيانه ، النظم ، البراعة.

Some of Arranging Meanings in the Quranic System Secrets
(Interpretive Study)

Ibrahim Ali Ali Amer
Department of Interpretation and Sciences of the Qur'an, Faculty of Fundamentals of Religion in Tanta, Al-Azhar University Egypt.

Abstract :
The purpose of the search is to reveal the secrets of the order of the same meaning in the holy Koranic systems, in accordance with the order of the Sharif newspapers, and to attempt to invoke the aspects of proportionality and the meaning of God ' s Words in order to realize some of the bounds of unlimited Koranic miracle and its features. The research consists of a preface, three researches and a conclusion; and the definition of scientific terms. A description of the order of meanings of language, systems and interpretation, and examples of the order of meanings in the entire Holy Koran. And models for arranging meanings in a single bracelet. The research followed an integral approach, combining: extrapolation, analysis and description. The most important findings of the research were that the order of meanings was high in both language and systems and interpretation, that the order of meaning was one of the keys to the realization that the systems of the Holy Quran were miraculous and that each of the study sites revealed a face of the ingenuity of the Koranic systems, with the accuracy of the expression, and of the appropriate glamour.

Keyword: The Ahjussi, Qur'an style, Statement of the Koran, Order the Koran, The Koran's ingenuity.

مقدمة

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله تعالى، وسلم على سيدنا محمد رسول الله الأعظم، وعلى آله وأصحابه وأتباعه، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد ...

فإن البحوث والدراسات المتعلقة بنظم القرآن الكريم لا يمكن تصور حصرها في عدد، أو حدها في جهة معينة؛ حيث إنها تتبع القرآن الكريم ذاته، من جهة كرمه، ومفهوم إعجازه، ووجوهه التي لا تنتهي.

ومن تلك المسائل الجديرة بالاهتمام ما يتعلق بترتيب المعاني في النظم القرآني؛ فإن للترتيب أسرارًا وفوائد، يحتاج كل منها إلى مزيد عناية ورعاية.

ولا شك أن المفسرين السابقين –رحمهم الله ورضي عنهم– قد أدركوا هذا الجانب المهم من جوانب النظم، وأشاروا في كتبهم إلى متعلقاته ومضامينه.

يقول الإمام الرازي –رحمه الله– في شأن ترتيب القرآن الكريم بصورة عامة: "اعلم أن عادة الله في ترتيب هذا الكتاب الكريم وقع على أحسن الوجوه، وهو أنه يذكر شيئا من الأحكام ثم يذكر عقيبه آيات كثيرة في الوعد والوعيد والترغيب والترهيب ويخلط بها آيات دالة على كبرياء الله وجلال قدرته وعظمة إلهيته، ثم يعود مرة أخرى إلى بيان الأحكام، وهذا أحسن أنواع الترتيب وأقربها إلى التأثير في القلوب؛ لأن التكليف بالأعمال الشاقة لا يقع في موقع القبول إلا إذا كان مقرونا بالوعد والوعيد، والوعد والوعيد لا يؤثر في القلب إلا عند القطع بغاية كمال من صدر عنه الوعد والوعيد؛ فظهر أن هذا الترتيب أحسن الترتيبات اللائقة بالدعوة إلى الدين الحق" [1].

---

١ – يراجع: مفاتيح الغيب، أبو عبد الله فخر الدين محمد بن عمر الرازي (بيروت: دار إحياء التراث العربي، الثالثة،١٤٢٠هـ) (١١/٢٣٢، ٢٣٣).

وإن كان مفهوم الترتيب الذي يشير إليه الإمام الرازي –رحمه الله– يصدق أولًا على الترتيب في السياق الواحد، إلا أن هذا لا يمنع أنه يؤصل لمبدأ الترتيب، وحقيقة وجوده، ومن ثمّ ضرورة رعايته.

من هنا كان من الضروري أن تتجه عناية المشتغلين بعلوم القرآن والتفسير نحو درس أسرار ترتيب المعاني في النظم القرآني؛ إسهامًا في إدراك شيء من مداخل هذا الجانب المهم من جوانب النظم، المفضي إلى الإعجاز.

ولكل ما سبق جاءت هذه الدراسة الموجزة، تحت عنوان: من أسرار ترتيب المعاني في النظم القرآني (دراسة تفسيرية).

– حدود البحث:

يركز البحث على الكشف عن أسرار ترتيب ورود المعنى الواحد في النظم القرآني الكريم، وفق ترتيب المصحف الشريف، ومحاولة استظهار ما في ذلك الترتيب من وجوه التناسب؛ باعتباره أحد مداخل إعجاز القرآن، ومعالمه.

– أهمية البحث:

تظهر أهمية البحث من وجوه؛ أهمها:

١– محاولة الكشف عن مداخل جديدة لدرس إعجاز النظم القرآني.

٢– تيسير إدراك بعض جوانب فكرة النظم؛ بصورة تكشف عن آفاق شمولها، وبراعتها.

٣– الكشف عن معالم جديدة لبراعة البيان القرآني.

٤– الكشف عن وجه مهم من وجوه التناسب والترتيب في النظم القرآني.

٥– استنباط بعض هدايات القرآن الكريم؛ من خلال ما يتعلق بدرس ترتيب المعاني من فوائد.

– مشكلة البحث:

تتلخص المشكلة الرئيسة للبحث في: مدى إمكانية استنباط أسرار وفوائد لترتيب ورود المعنى الواحد في مواضع متعددة من القرآن الكريم كله، أو في

السورة الواحدة منه، باعتبار تشكيل تلك المواضع فصلًا واحدًا من المعاني، وإمكانية توظيف ذلك في درس إعجاز نظم القرآن الكريم.

ويمكن تفصيل مشكلة البحث من خلال الأسئلة الآتية:

- ما مفهوم أسرار ترتيب المعاني؟
- ما منزلة ترتيب المعاني من علوم اللغة؟
- ما منزلة ترتيب المعاني من النظم؟
- ما منزلة ترتيب المعاني من التفسير وعلوم القرآن؟
- هل لترتيب ورود المعنى الواحد في مواضع متعددة في القرآن الكريم كله من سر وفائدة؟
- هل لترتيب ورود المعنى الواحد في السورة الواحدة من القرآن الكريم من سر وفائدة؟
- هل يمكن توظيف بحث ترتيب المعاني في النظم القرآني في الدرس الإعجازي؟

- أهداف البحث:

يمكن إجمال أهداف البحث في:

١- إدراك مفهوم "أسرار ترتيب المعاني".

٢- الكشف عن حدود منزلة ترتيب المعاني من علوم اللغة.

٣- الكشف عن حدود منزلة ترتيب المعاني من النظم.

٤- الكشف عن حدود منزلة ترتيب المعاني من التفسير وعلوم القرآن.

٥- الكشف عن أسرار وفوائد لترتيب ورود المعنى الواحد في مواضع متعددة في القرآن الكريم كله.

٦- الكشف عن أسرار وفوائد لترتيب ورود المعنى الواحد في السورة الواحدة من القرآن الكريم.

٧- توظيف درس ترتيب المعاني في الدرس الإعجازي العام للقرآن الكريم.

– الدراسات السابقة:

يسر الله –تعالى– لي فوقفت على دراسة عالجت الموضوع، وهي: "الإعجاز البياني في ترتيب المعاني: دراسة جديدة في الذكر الحكيم"، أ.د إبراهيم صلاح الهدهد، وهو بحث محكم، ومنشور ضمن أبحاث العدد (السادس)، من المجلة العلمية لكلية القرآن الكريم للقراءات وعلومها بطنطا، عام ١٤٤٢هـ– ٢٠٢٠م.

ويهدف البحث بصورة عامة إلى تناول: ترتيب جريان المعنى الواحد في سور الذكر الحكيم، وبيان أسرار هذا الترتيب.

وقد تكون البحث من مقدمة، وتمهيد للموضوع، تناول نبذة عن عناية العلماء بالترتيب في الذكر الحكيم، وثلاثة مباحث، اختص أولها بنماذج للترتيب التصاعدي للمعنى، والثاني بنماذج للترتيب التنازلي للمعنى، والثالث بنماذج لترتيب العموم والخصوص.

وقد خلصت الدراسة إلى تأكيد كون ترتيب المصحف الشريف بتوقيف من الله – جل وعلا–.

ولا شك أني قد أفدت من هذا البحث فكرة موضوعي أولًا، وكيفية تناول النماذج بالدرس ثانيًا.

ويختلف بحثي عن ذلك البحث في المحتوى والمنهج؛ أما المحتوى؛ فإن بحثي يتناول نماذج جديدة ومختلفة عن النماذج التي تناولها البحث، كما أن بحثي يتناول نماذج لترتيب المعاني على مستوى القرآن الكريم كله، ونماذج لترتيب المعاني على مستوى السورة الواحدة، وأما المنهج؛ فالبحث يغلب عليه الصنعة البلاغية، بينما يغلب على بحثي الصنعة التفسيرية، وإن كان كل منهما لا يستغني عن الآخر.

- منهج البحث:

ينتهج البحث منهجًا متكاملًا، يتكون من:

- الاستقراء؛ وهو(غير تام): وذلك من خلال تتبع الجزئيات المتعلقة بالبحث من خلال كتب التفسير وغيرها من المراجع.
- التحليل؛ وذلك لما جُمع من جزئيات تتعلق بالبحث؛ لاستنباط ما فيها من فوائد وأسرار تتعلق بموضوع البحث.

ويمكن تلخيص منهج دراسة النماذج التطبيقية على النحو الآتي:

- بيان مقصود الآية وموقعها من السياق الواردة بها، واتساقها مع مقصود السورة، وذلك بصورة إجمالية موجزة.
- تلخيص أهم أنماط النظم ولطائفه، وارتباطه بمقصود الآية.
- محاولة الكشف عن وجه العلاقة بين الصور المتعددة، من خلال أقوال السادة المفسرين وغيرهم من العلماء.

كما التزمت عددًا من الخطوات المنهجية في البحث بصورة عامة، أهمها:

١- عزو الآيات القرآنية الكريمة إلى سورها في صلب البحث، عقب ذكر الآية.

٢- عزو أقوال العلماء وكل ما أفدته من كلامهم إلى مصادرها.

٣- لم أترجم للأعلام الواردة في صلب البحث؛ قصدًا للإيجاز والاختصار.

٤- أذكر بيانات المرجع أو المصدر كاملة، في أول ذكر له، ثم أقتصر في المرات التالية على ذكر اسم الكتاب والصفحة فقط.

٥- أقوم بالتعريف بالمصطلحات الضرورية من مصادرها، أول ورود لها في البحث.

٦- قد أذكر في الحاشية تفصيلات، أراها مهمة لتوضيح ما أشير إليها إجمالًا في الصلب.

– تقسيم البحث:

يتألف البحث من مقدمة وتمهيد، ومبحثين، وخاتمة، تفصيلها كالآتي:

- **المقدمة وتتضمن:** حدود البحث، وأهدافه، وأهمية الموضوع، ومشكلة البحث، والدراسات السابقة، ومنهج البحث، وتقسيمه.
- **التمهيد: تعريفات ومفاهيم، وفيه:** التعريف بمصطلحات البحث: أسرار ترتيب المعاني، والنظم القرآني، والمفهوم الإجمالي لعنوان البحث.
- **المبحث الأول: منزلة ترتيب المعاني من اللغة والنظم والتفسير، وفيه مطالب:**
- **المطلب الأول:** منزلة ترتيب المعاني من اللغة.
- **المطلب الثاني:** منزلة ترتيب المعاني من النظم.
- **المطلب الثالث:** منزلة ترتيب المعاني من التفسير وعلوم القرآن.
- **المبحث الثاني: دراسة لنماذج من ترتيب المعاني على مستوى القرآن الكريم كله، وفيه مطالب:**
- **المطلب الأول:** الترتيب في معنى "دليل توحيد الله –تعالى– بطريق (التمانع)".
- **المطلب الثاني:** الترتيب في معنى "عدم تناهي كلام الله –تعالى–".
- **المطلب الثالث:** الترتيب في معنى "لزوم الأدب في خطاب سيدنا رسول الله ﷺ".
- **المطلب الرابع:** الترتيب في معنى "تنزيه سيدنا رسول الله ﷺ عن الشعر".
- **المطلب الخامس:** الترتيب في معنى "التحذير من تزكية النفس".
- **المبحث الثالث: دراسة لنماذج من ترتيب المعاني على مستوى السورة الواحدة، وفيه مطالب:**
- **المطلب الأول:** الترتيب في معنى "مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله" (في سورة البقرة).

- **المطلب الثاني:** الترتيب في معنى "عاقبة الذين كذبوا بآيات الله واستكبروا عنها" (في سورة الأعراف).
- **المطلب الثالث:** الترتيب في معنى "الغاية من إنزال القرآن على سيدنا رسول الله" (في سورة النحل).
- **المطلب الرابع:** الترتيب في معنى "سوء عاقبة من أعرض عن الذكر" (في سورة طه).
- **المطلب الخامس:** الترتيب في معنى "سوء عاقبة الذين يحادون الله ورسوله" (في سورة المجادلة).
- **الخاتمة: وتتضمن:**
- **أولًا: النتائج.**
- **ثانيًا: التوصيات.**
- **ثبت بمراجع البحث، ومصادره.**

والحمد لله رب العالمين

وصلى الله تعالى وسلم وبارك على سيدنا محمد رسول الله الأعظم

وعلى آله وصحبه وسلّم

*****

التمهيد

تعريفات ومفاهيم

يدور محور البحث حول عدد من المصطلحات، الموصلة إلى إدراك مفهومه الشامل، وهذا ما أتناوله بإيجاز في النقاط الآتية:

أولًا: التعريف بترتيب المعاني:

مصطلح (أسرار ترتيب المعاني) مركب إضافي، لابد أولًا من التعريف بمفرداته؛ وصولًا إلى إدراك مفهومه.

والأسرار في اللغة: جمعٌ، مفرده (سر)، وأصله "(إخفاء الشيء)، ويستعمل في الأعيان والمعاني، فمنه حقيقةً السر: خلاف الإعلان، يقال أسررت الشيء إسرارا، خلاف أعلنته، ومجازًا عن النكاح؛ وسمي بذلك لأنه أمر لا يعلن به، واشتهر استعمال السر في القرآن الكريم بمعنى: الحديث المكتم في النفس؛ قال تعالى: ﴿يَعۡلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخۡفَى﴾ [طه: ٧]، وقال تعالى: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ سِرَّهُمۡ وَنَجۡوَىٰهُمۡ﴾ [التَّوۡبَة: ٧٨] [(١)].

والسر في الاصطلاح العام: "ما كان مَسْتورًا خفيًّا يتعذّر فهمه" [(٢)]، وهو قريب من المفهوم المراد في البحث؛ باعتبار أن السر المراد أمر خفي نسبيًا، يحتاج إلى بحث واستنباط.

١- يراجع: معجم مقاييس اللغة، أبو الحسين أحمد بن فارس (بيروت: دار الفكر، د.ط، ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م) [مادة: س ر] (٦٧/٣)؛ والمفردات في غريب القرآن، أبو الحسين الراغب الأصفهاني (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤١٩هـ - ١٩٩٨م) [مادة: س ر] (ص: ٤٠٤)؛ وأساس البلاغة، أبو القاسم الزمخشري (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤١٩هـ - ١٩٩٨م) [مادة: س ر] (٤٥٠/١)؛ والمعجم الاشتقاقي المؤصل، أ.د محمد محمد حسن جبل (القاهرة: مكتبة الآداب، ٢٠١٠م) [مادة: س ر ر] (٩٨١/٢-٩٨٣).

٢- معجم اللغة العربية المعاصرة، أ.د أحمد مختار عمر بمساعدة فريق عمل (بيروت: دار عالم الكتب، ١٤٢٩هـ- ٢٠٠٨م) [مادة: س ر ر] (١٠٥٦/٢)؛ والمعجم الفلسفي، د. جميل صليبا (بيروت: دار الكتاب اللبناني، الأولى، ١٩٨٢م) (٦٥٣/١) بتصرف.

والترتيب في اللغة: (تفعيلٌ) مصدر (رتَّب)، أصله (من الثبات والدوام)، ويستعمل مجازًا بمعنى: وضع الأعيان أو المعاني في مراتب ومنازل، وفق نظام معين [١]، وهذا المعنى هو المراد في البحث.

وهو في الاصطلاح: "جعل الْأَشْيَاء المتعددة بِحَيْثُ يُطلق عَلَيْهَا اسْم الْوَاحِد، وَيكون لبعضها نِسْبَة إِلَى بعض بالتقدم والتأخر" [٢].

والمعاني في اللغة: جمع (معنىً)، وأصله (ظهور شيء وبروزه)، ومنه: عُنْيان الكتاب، وعنوانه، وعُنيانه، ويقصد به: البارز منه إذا ختم، ومن هذا الباب معنى الشيء؛ فالمعنى هو: القصدُ (أي المراد) الذي يبرز، ويظهر في الشيء إذا بحث عنه، أو هو: القصد الذي يقع به القول على وجه دون وجه [٣].

وعرِّف المعنى في الاصطلاح بأنه: " الصورة الذهنية من حيث وُضع بإزائها اللفظ" [٤]، أو هو: "تصوُّرٌ يرتبط باللَّفظ في الذِّهن ارتباطًا عُرفيًّا

١- يراجع: معجم مقاييس اللغة، [مادة: ر ت ب] (٤٨٦/٢)؛ وأساس البلاغة [مادة: ر ت ب] (٣٣٤/١)؛ وتاج العروس من جواهر القاموس، محمد مرتضى الزبيدي (الكويت: دار الهداية، الأولى، ١٣٨٥هـ- ١٩٦٥م) [مادة: ر ت ب] (٤٨١/٢)؛ ومعجم اللغة العربية المعاصرة [مادة: ر ت ب] (٨٥٣/٢).

٢- معجم مقاليد العلوم في الحدود والرسوم، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر، السيوطي (القاهرة: مكتبة الآداب، الأولى، ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٤م) (ص: ١١٧)، ويراجع: كتاب التعريفات، علي بن محمد بن علي الزين، الشريف الجرجاني (بيروت: دار الكتب العلمية، الأولى، ١٤٠٣هـ -١٩٨٣م) (ص: ٥٥).

٣- يراجع: مقاييس اللغة، [مادة: ع ن ى] (١٤٨/٤)؛ والفروق اللغوية، أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل بن سعيد بن يحيى بن مهران العسكري (القاهرة: دار العلم والثقافة للنشر والتوزيع، د. ط. ت) (ص: ٣٣)؛ وأساس البلاغة [مادة: ع ن ي] (٦٨٢/١).

٤- المعجم الفلسفي، د. جميل صليبا (٣٩٨/٢).

بالمطابقة، وهو المعنى الحقيقيّ، أو ذهنيًّا بالتَّضمُّن أو الّلازم، وهو المعنى الضِّمنيّ، أو مجازيًّا بواسطة الاستعارة، وهو المعنى المجازيّ، أو طبيعيًّا بحكاية الصوت للمعنى، وهو المعنى الطبيعيّ" [١].

وعُرِّف المعنى القرآني بأنه: "كل ما أبان الله –تعالى– في كتابه العلي الحكيم، المنزل على رسوله –صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم–، بلسان عربي مبين، ويدركه، ويستنبطه الأعيان من أهل العلم من النص القرآني، في سياقه القريب، والمديد، وفقًا لأصول الفهم والاستنباط، وضوابطهما، متجليًا فيه جلال الألوهية، وجمال الربوبية، هاديًا من آمن به إلى الارتقاء إلى مقام العبودية الصفاء، لله رب العالمين" [٢].

والمعاني المرادة في عنوان البحث هي: مدلولات ألفاظ القرآن الكريم [٣].

من خلال ما سبق؛ يمكن تلخيص المراد بمصطلح (أسرار ترتيب المعاني) بأنه: الأمور الخفية نسبيا – والتي تستدعي البحث والاستنباط– المتعلقة بوضع المعنى القرآني الواحد في رتبة ما من النظم القرآني، وفق نظام معين (تقديمًا وتأخيرًا).

١– معجم اللغة العربية المعاصرة، [مادة: ب ع د] (٢/ ١٥٦٧).

٢– المعنى القرآني معالم الطريق إلى فقهه في سياق السورة: رؤية منهجية ومقاربة تأويلية، أ.د محمود توفيق سعد (القاهرة: مكتبة وهبة، الأولى، ١٤٤٢هـ–٢٠٢١م) (ص: ٤٦).

٣– يراجع: البرهان في علوم القرآن، أبو عبد الله بدر الدين محمد بن عبد الله بن بهادر الزركشي (القاهرة: دار إحياء الكتب العربية عيسى البابي الحلبي وشركاه، الأولى، ١٣٧٦هـ - ١٩٥٧م) (١/ ٢٩١).

ثانيًا: التعريف بفكرة النظم:

النظم في اللغة: مصدرٌ فعله: نَظَمَ، ويدل أصل مادته على التأليف وضم شيء إلى شيء آخر [1]؛ وبناءً على هذا الأصل استعمل لفظ (النظم) في معانٍ؛ أهمها:

- نظم القرآن: أي لفظه، وهي العبارة التي تشتمل عليها المصاحف صيغةً ولغةً.
- ما يقابل النثر من الكلام الموزون المقفى، وقد يطلق على الشعر[2].

وهكذا يدور استعمال النظم في اللغة حول معاني: الاتساق، والائتلاف، والتناسب، والتلاؤم بين عناصر الشيء الواحد، ويستعمل في جانبي المحسوس والمعقول؛ حقيقةً ومجازًا.

---

١ – يراجع: مقاييس اللغة [مادة: ن ظ م] (٤٤٣/٥)؛ وتاج العروس [مادة: ن ظ م] (٤٩٦/٣٣).

٢ – يراجع: العين، الخليل بن أحمد الفراهيدي (بيروت: دار ومكتبة الهلال، الأولى، د.ت) [مادة: ن ظ م] (١٦٥/٨، ١٦٦)؛ وجمهرة اللغة، أبو بكر محمد بن الحسن بن دريد الأزدي (بيروت: دار العلم للملايين، الأولى، ١٩٨٧م) [مادة: ن ظ م] (٢/ ٩٣٥)؛ وتهذيب اللغة، أبو منصور الأزهري (بيروت: دار إحياء التراث العربي، الأولى، ٢٠٠١م) [مادة: ن ظ م] (١٤/ ٢٨٠)؛ والمحيط في اللغة، أبو القاسم إسماعيل بن عباد (بيروت: دار عالم الكتب، الأولى، ١٤١٤هـ –١٩٩٤م) [مادة: ن ظ م] (٣٥/١٠)؛ والصحاح، أبو نصر إسماعيل بن حماد الجوهري الفارابي (بيروت: دار العلم للملايين، الرابعة ١٤٠٧هـ – ١٩٨٧م) [مادة: ن ظ م] (٥/ ٢٠٤١)؛ ومقاييس اللغة [مادة: ن ظ م] (٤٤٣/٥)؛ ولسان العرب [مادة: ن ظ م] (١٢/ ٥٧٨)؛ والقاموس المحيط، مجد الدين أبو طاهر محمد بن يعقوب الفيروزآبادى، (بيروت: مؤسسة الرسالة، الثامنة، ١٤٢٦هـ – ٢٠٠٥م) [مادة: ن ظ م] (ص: ١١٦٢)، تاج العروس [مادة: ن ظ م] (٤٩٦/٣٣، ٤٩٩)؛ ومعجم اللغة العربية المعاصرة [مادة: ن ظ م] (٣/ ٢٢٣٥).

وقد عرفت فكرة النظم في الاصطلاح بتعريفات؛ من أشهرها:

- أنها: " توخي معاني النحو فيما بين الكلم، وأنك ترتب المعاني أولًا في نفسك، ثم تحذو على ترتيبها الألفاظ في نطقك" (١).
- كما عُرّفت بأنها: "ترتيب المعاني في النفس وتنسيق دلالتها، وتلاقي معانيها بما تقوم عليه من معاني النحو المتخيَّرة حسب ما يقتضيه العقل، ومن ثم النطق بالألفاظ بحسب ترتيب تلك المعاني في النفس" (٢).

يقول الشيخ عبد القاهر(ت: ٤٧١هـ): " وأما "نظم الكلم" فليس الأمر فيه كذلك، لأنك تقتفي في نظمها آثار المعاني، وترتبها على حسب ترتب المعاني في النفس، فهو إذن نظم يعتبر فيه حال المنظوم بعضه مع بعض، وليس هو "النظم" الذي معناه ضم الشيء إلى الشيء كيف جاء واتفق. ولذلك كان عندهم نظيرا للنسخ والتأليف والصياغة والبناء والوشي والتحبير وما أشبه ذلك، مما يوجب اعتبار الأجزاء بعضها مع بعض، حتى يكون لوضع كل حيث وضع، علة تقتضي كونه هناك، وحتى لو وضع في مكان غيره لم يصلح" (٣).

ويمكن تعريف فكرة النظم بصورة عملية مفصّلة بأنها: "إدراك المعاني النحوية، والملاءمة بينها وبين المعاني النفسية في نسج الكلام وتركيبه، مما يؤدي إلى حسن اختيار الألفاظ، ودقة التأليف والتنسيق في التراكيب المختارة والصيغ المستعملة؛ على وجه يبرز الأسرار والنكت في أسلوب القرآن، ويكشف

---

١ – دلائل الإعجاز، أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد الجرجاني (بيروت: دار الكتب العلمية، الأولى،١٤٢٢هـ – ٢٠٠١ م) (ص: ٢٨٨).

٢ – البلاغة فنونها وأفنانها، أ.د فضل حسن عباس (عمَّان: دار الفرقان، الأولى، ١٩٨٥م) (ص: ٥١).

٣ – دلائل الإعجاز (ص: ٤٩).

الفروق المعنوية الدقيقة بين خصوصيات التراكيب، ويربط هذه الخصوصيات بالسياق والغرض" [١].

ويُقصد بالمعاني النحوية، أو معاني النحو: "الدور الذي تؤديه الكلمة في التركيب عن طريق مكانتها في الجملة، أو طريق صياغتها، أو طريق معناها" [٢].

ثالثًا: المفهوم الإجمالي لعنوان البحث:

من خلال ما سبق يمكن صياغة تعريف إجمالي بعنوان البحث، كالآتي:

محاولة الوقوف على اللطائف والعلل – والتي تستدعي البحث والاستنباط– المتعلقة بوضع المعنى القرآني الواحد في رتبة ما، من سياق النظم القرآني، وفق نظام معين (حسب ترتيب المصحف الشريف)؛ وذلك بغرض الكشف عما فيها من معالم الدقة، والتناسب، والبراعة، وغيرها من متعلقات فكرة النظم.

١ – يراجع: البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري وأثرها في الدراسات البلاغية، أ.د محمد أبو موسى (القاهرة: دار الفكر العربي، القاهرة، د.ط.ت) (ص: ١٨٩)؛ ودراسة الأسلوب بين المعاصرة والتراث، أ.د/ أحمد درويش (القاهرة: مكتبة الزهراء، الأولى، د.ت) (ص: ٣٦).

٢ – دراسة الأسلوب بين المعاصرة والتراث (ص: ٣٤) بتصرف.

المبحث الأول

منزلة ترتيب المعاني بين اللغة والنظم والتفسير

يفهم من تعريف فكرة النظم – الذي هو أرقى مستوى للكلام – أن للمعاني المقصودة دورًا في تكوين تلك الفكرة؛ وهذا يستدعي البحث عن منزلة ترتيب المعاني في علوم اللغة عامة، وفي النظم والتفسير وعلوم القرآن بصورة خاصة؛ فما معالم هذه المنزلة ؟ وما حدودها؟

هذا ما تحاول المطالب الآتية الكشف عنه –بإذن الله تعالى وتوفيقه–.

المطلب الأول: منزلة ترتيب المعاني من علوم اللغة:

يمكن لمتأمل منزلة ترتيب المعاني في علوم اللغة أن يصنف تلك المنزلة إلى مستويين:

الأول: مستوى النحو، ويعد هذا المستوى الأساس لكل ما بعده؛ بناءً على كون النحو أساسًا لفكرة النظم، كما مر في تعريفه.

وفي هذا المستوى يبرز ما أشار إليه النحاة الأوائل من مبدأ: "إقامة العلاقات السوية بين الألفاظ والمعاني"، أو "ائتلاف الكلام وما يؤدي إلى صحته وفساده".

فهذا سيبويه (ت:١٨٠هـ) يعقد بابًا لمستقيم الكلام ومحاله، جاء فيه: " هذا باب الاستقامة من الكلام والإحالة: فمنه مستقيم حسنٌ، ومحال، ومستقيم كذب، ومستقيم قبيح، وما هو محال كذب ....."، ثم أعقب ذلك بأمثلة وتطبيقات لكل نوع منها [١].

١ – الكتاب (كتاب سيبويه) (القاهرة: مكتبة الخانجي، الثالثة، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م) (٢٥/١-٣٢).

ولقائلٍ أن يقول: إن هذا الكلام إنما يكون في إطار فكرة الإسناد، وهي بلا شك أضيق حدودًا من فكرة هذا البحث!

والجواب: أنه حقًا ينصرف أوليًا إلى حدود فكرة الإسناد، وضمن إطارها، لكن ذلك لا ينفي ما في كلامه –رحمه الله– من إشارة إلى أصلية فكرة ترتيب المعاني في الدرس النحوي.

ومما يمكن أن يعتبر دليلًا لهذا الطرح ما نجده في مسألة "التعقيد اللفظي" [(١)]، ضمن مبحث الفصاحة في علم البيان.

ويمكن إدراك الأثر البالغ لاختلال الترتيب عمومًا على فكر المتلقي، وحسن إدراكه، من خلال وصف السكاكي (ت:٦٢٦هـ) للتعقيد اللفظي بقوله: "والمراد بتعقيد الكلام: هو أن يعثر صاحبه فكرك في متصرفه، ويشيك طريقك على المعنى، ويوعر مذهبك نحوه؛ حتى يقسم فكرك، ويشعب ظنك، على أن لا تدري من أين تتوصل؟ وبأي طريق معناه يتحصل؟!" [(٢)].

ومن أمثلة هذا الخلل والعيب قول الشاعر:

وما مثله في النّاس إلا مملّكا ... أبو أمّه حيّ أبوه يقاربه [(٣)]

---

١ – التعقيد اللفظي: "أن يختل على السمع نظم الكلام؛ فلا يدري كيف يصلُ إلى معناه". عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح، أبو حامد بهاء الدين أحمد بن علي بن عبد الكافي السبكي (بيروت: المكتبة العصرية للطباعة والنشر، الأولى، ١٤٢٣هـ – ٢٠٠٣م) (١/ ٧٩).

٢ – مفتاح العلوم (بيروت: دار الكتب العلمية، بيروت، الثانية، ١٤٠٧هـ – ١٩٨٧م) (ص: ٤١٦).

٣ – البيت للفرزدق يمدح خال هشام بن عبد الملك. يراجع: المعاني الكبير في أبيات المعاني، أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري (بيروت: دار الكتب العلمية، الأولى، ١٤٠٥هـ – ١٩٨٤م) (١/ ٥٠٦).

وقد يقول قائل: إن هذا الطرح بلاغي بحت؛ فما علاقة النحاة ودرسهم بالمسألة؟

والجواب من الواقع: وذلك أن معالجة المسألة في واقع التراث الخالد لم تقتصر على البلاغيين؛ فقد ذكر النحاة أن في البيت "ضروبًا من العيوب، من التقديم والتأخير، وحقُ الكلام على ما ينبغي أن يكون عليه اللفظ: وما مثله في الناس حي يقاربه، إلا مملكٌ أبو أمه أبوه" [١].

وإذا كانت علة هذا العيب، أو الخلل تعود –اتفاقًا– إلى ترتيب المعاني، وعلاقتها بترتيب الألفاظ؛ فإن هذا مما يدلل على أصلية فكرة ترتيب المعاني في الدرس النحوي.

ولم يترك النحاة الأمر والمسألة في مرحلة الدرس العام الشامل لكل الكلام العربي، بل إن بعضهم قد أشار إلى فكرة ترتيب المعاني في القرآن الكريم، بل وصرّح بها بعضهم، وضرب أمثلةً لها.

فمن الأول: ما ورد ضمن كلام ابن السراج (ت:٣١٦هـ) من "أن مجاز القرآن كله مجاز سورة واحدة بعد ابتدائه، وأن بعضه متصل ببعض" [٢].

ومنه أيضًا: ما ذكره السهيلي (ت:٥٨١هـ) أثناء درسه مسألة "أم العاطفة" من قوله: "لأن القرآن كله مبني على تقريع الجاحدين، وتبكيت المعاندين، وهو كله كلام واحد، كأنه معطوف بعضه على بعض ..." [٣].

---

١ – شرح كتاب سيبويه الحسن بن عبد الله بن المرزبان، أبو سعيد السيرافي (بيروت: دار الكتب العلمية، الأولى، ٢٠٠٨م) (١/ ٢٤٤).

٢ – الأصول في النحو(بيروت: مؤسسة الرسال، د. ط. ت) (١/٤٠١).

٣ – نتائج الفكر في النحو (بيروت: دار الكتب العلمية، الأولى: ١٤١٢هـ– ١٩٩٢م) (ص: ٢٠٥، ٢٠٦).

ومن الثاني: قول ابن الشجري (ت:٥٤٢هـ) "... فقد قالوا: إن مجاز القرآن مجاز الكلام الواحد والسورة الواحدة، قالوا: والذى يدلّ على ذلك أنه قد يذكر الشيء في سورة، فيجيء جوابه في سورة أخرى؛ كقوله:﴿ وَقَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ إِنَّكَ لَمَجۡنُونٌ ﴾ الحِجْر: ٦، جاء جوابه في سورة أخرى:﴿ مَآ أَنتَ بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ بِمَجۡنُونٖ ﴾ القَلَم: ٢" [١].

وأما المستوى الثاني: فهو مستوى علم اللغة، ويبرز في هذا المستوى مصطلحات: "(التماسك/الالتحام/الحبك)، ضمن أبواب دراسة النص، ويقصد بذلك: الترابط الدلالي، وتقوم فكرة التماسك على العلاقات المعنوية بين أجزاء النص، سواءٌ على مستوى الجمل، أم القضايا الكبرى؛ كعلاقات السببية، والتعليل، والعموم، والخصوص، والإجمال، والتفصيل، وغيرها، وإدراك هذه العلاقات مهمة القارئ، ويحتاج في ذلك إلى تصور عميق للنص ومكوناته؛ ولذا يختلف الدارسون في وجوه العلاقات؛ بحسب قوة تصورهم، وعمق فكرهم ومعارفهم" [٢].

ولعل أثر هذا المستوى اللغوي يزداد وضوحًا وظهورًا إذا وضع في إطار ما سبق تقريره، من كون القرآن الكريم كله كلامًا واحدًا، وأن بعضه متصل ببعض.

---

١ – أمالي ابن الشجري (القاهرة: مكتبة الخانجي، القاهرة، الأولى، ١٤١٣هـ–١٩٩١م) (١٤٢/٢).

٢ – قضايا في إحكام النظم القرآني، د. يوسف بن عبد الله العليوي (الرياض: مجلة العلوم العربية، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، العدد ٤٣، ١٤٣٨هـ–٢٠١٦م) (ص: ٢٨١) بتصرف.

من خلال ما سبق يمكن للبحث التأكيد على كون فكرة ترتيب المعاني بصورة عامة، وفي القرآن الكريم بصورة خاصة قد أدركها النحاة، وتبوأت مكانةً مهمة ومؤثرةً في الدرس اللغوي العام، بمستوييه: النحوي واللغوي العام.

المطلب الثاني: منزلة ترتيب المعاني من النظم:

لترتيب المعاني في فكرة النظم منزلة أساس، ومكانة أصل؛ ذلك أن فكرة النظم مرتبطة بمعاني النحو، وقد تبين منزلة ترتيب المعاني من الدرس النحوي.

بيان ذلك: أن كون النظم "توخيًا، أو قصدًا لمعاني النحو" [١] يقتضي أن يضع المتكلم كل كلمة في المكان الذي يتطلبها، والسياق الذي يقتضيها، ولا يتأتى هذا العمل إلا عن طريق ترتيب المعاني في النفس أولاً، ثم ترتيب الألفاظ في النطق حسب ترتيب المعاني في النفس [٢].

فالنظم "ليس مجرد بناء كلمات في صورة جملة أو جمل، كما أنه لا يتضح المراد بمعاني النحو في إعراب الكلمات وبنائها، ولا في تفسير الألفاظ ومعانيها، فيُطلق على هذه الكلمة أنها (مبتدأ)، وعلى الأخرى (خبر)، أو أن هذه (فعل)، وتلك (فاعل)، وإنما تتضح معاني النحو باتحاد أجزاء الكلام، ودخول بعضها في بعض، وارتباط الثاني بالأول، كما تتضح في الوحدة الشاملة بين

١ – يراجع: دلائل الإعجاز (ص: ٢٨٨).

٢ – يراجع: دلائل الإعجاز (ص: ٢٨٨)؛ وأسرار البلاغة في علم البيان، أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد الجرجاني (بيروت: ط: دار الكتب العلمية، الأولى، ١٤٢٢هـ – ٢٠٠١م) (ص: ١٤)؛ والبلاغة العربية المفترى عليها بين الأصالة والتبعية، أ.د/ فضل حسن عباس،(عمّان: دار الفرقان، الثانية، ١٤٢٠هـ–١٩٩٩م) (ص: ١٤١).

أجـزاء الجملـة، وبـين الجملـة والجملـة، فـي مجموعـة مـن العلاقـات المنظمـة المتناسقة بين أطراف الكلام" [١].

كما تبوأت فكرة ترتيب المعاني في الدرس البلاغي بصورة عامة مكانة مهمة؛ حتى إن بعضهم عرّف البلاغة بقوله: "البلاغة أن يكون أول كلامك يدل على آخره، وآخره يرتبط بأوله" [٢].

ويمكن لمتتبع فكرة النظم من بداياتها أن يقف على أصالة مبدأ "ترتيب المعاني"، ضمن أقوال العلماء في شأن النظم، تصريحًا، وإشارةً.

ويعتبر عبد الله بن المقفع (ت:١٤٢هـ) أول من نسبت إليه إشارة تتعلق بفكرة نظم الكلام عند البلغاء بصورةٍ عامة، وذلك في قوله: "فليعلم الواصفون المخبئون أن أحدهم، وإن أحسن وأبلغ، ليس زائدا على أن يكون كصاحب فصوص؛ وجد ياقوتا، وزبرجد، ومرجانا، فنظمه قلائد وسموطًا وأكاليل، ووضع كل فص موضعه، وجمع إلى كل لون شبهه، وما يزيده بذلك حسنا، فسمي بذلك صانعًا رفيقًا" [٣].

---

١ – اللغة العربية معناها ومبناها، أ.د تمام حسان عمر (بيروت: دار عالم الكتب، الخامسة، ١٤٢٧هـ–٢٠٠٦م) (ص: ١٨٧)؛ وعبد القاهر الجرجاني ونظرية النظم، أ.د/ عبد القادر حسين، (بيروت: مجلة الفكر العربي، معهد الإنماء العربي، مجلد ٨، العدد ٤٦، ١٩٨٧م) (ص:١٤٩) بتصرف.

٢ – العمدة في محاسن الشعر وآدابه، أبو على الحسن بن رشيق القيرواني الأزدي (بيروت: دار الجيل، الخامسة، ١٤٠١هـ – ١٩٨١م) (١/ ٢٤٤).

٣ – الأدب الصغير والأدب الكبير (بيروت: دار صادر، د. ط، ١٩٦٤م) (ص: ١٣).

كما ينسب إلى بشر بن المعتمر المعتزلي (ت: ٢١٠هـ) إشارات تتعلق بفكرة النظم والترتيب، وذلك من خلال تنبيهه إلى وضع الألفاظ في مواقعها اللائقة بها، وذم التكلف لذلك [١].

وكذلك ورد الحديث عن النظم والترتيب في كلام الجاحظ (ت: ٢٥٥هـ)، وذلك في سياق حديثه عن المقارنة بين نظم القرآن الكريم وسائر الكلام، وقد ورد النظم في كلامه مرادفاً للتأليف، وبمعنى النسق الخاص في التعبير، وبمعنى الطريقة المميزة في التركيب [٢]، وللثلاثة تعلق بفكرة الترتيب.

كما أشار إلى الترتيب الإمام الخطابي (ت: ٣٨٨هـ)، ضمن حديثه عن النظم؛ حيث نص على أن القرآن إنما صار معجزًا؛ لأَنه جاءَ بأَفصح الألفاظ، في أحسن نظوم التأليف، مضمنًا أصح المعاني، وتتلخص فكرة النظم لديه في أن الكلام يقوم بهذه الأشياء الثلاثة: "لفظ حامل، ومعنى به قائم، ورباط لهما ناظم" [٣].

وعقد الإمام أبو هلال العسكري (ت: ٣٩٥هـ) باباً تحت عنوان: في البيان عن حسن النظم، وجودة الرصف والسبك، وخلاف ذلك [٤]، وكل ذلك متعلق به ترتيب المعاني، وجزء منه.

---

١ – يراجع: البيان والتبيين، أبو عثمان عمرو بن بحر بن محبوب الكناني بالولاء، الليثي، الشهير بالجاحظ (بيروت: دار ومكتبة الهلال، د. ط، ١٤٢٣هـ) (١/١٣٠).

٢ – يراجع: رسائل الجاحظ (القاهرة: مكتبة الخانجي، القاهرة، الأولى، ١٣٨٤هـ–١٩٦٤م) (٣/٢٢٩)، (٤/٣١).

٣ – يراجع: البيان في إعجاز القرآن، مطبوع ضمن: ثلاث رسائل في إعجاز القرآن (القاهرة: دار المعارف بمصر، الثالثة، ١٩٧٦م) (ص:٢٢– ٢٧).

٤ – يراجع: كتاب الصناعتين (بيروت: المكتبة العصرية، ١٤١٩هـ.) (ص: ١٦١).

كما ورد النظم في كلام القاضي أبي بكر الباقلاني (ت: ٤٠٥هـ) بمعنى التنسيق، والائتلاف بين الكلم، وذلك أثناء حديثه عن الوجه الثالث من وجوه إعجاز القرآن[١]، وهو مفهوم مقارب للترتيب.

وتعرّض القاضي عبد الجبار (ت: ٤١٥هـ) لفكرة النظم والترتيب، وخلاصة كلامه: أن الفصاحة لا تظهر في الكلمة المفردة إلا إذا ضمت إلى غيرها في تركيب، على طريقة مخصوصة من مراعاة المعنى النحوي، وحركات الإعراب، ودلالة السياق [٢].

ثم أتى عقب هؤلاء الإمام عبد القاهر الجرجاني (ت: ٤٧١هـ) بنظريته الشاملة عن فكرة النظم، ليؤكد أن للمعاني وترتيبها الدور المهم في تكوين فكرة النظم، ثم يظل ترتيب المعاني أحد معايير جودة النظم، وحسنه.

ويبين عبد القاهر مكانة ترتيب المعاني، أثناء تأكيده على التفرقة بين نظم الحروف ونظم الكلم؛ فيقول: " ... وأما "نظم الكلم" فليس الأمر فيه كذلك، لأنك تتقي في نظمها آثار المعاني، وترتبها على حسب ترتب المعاني في النفس، فهو إذن نظم يعتبر فيه حال المنظوم بعضه مع بعض، وليس هو "النظم" الذي معناه ضم الشيء إلى الشيء كيف جاء واتفق. ولذلك كان عندهم نظيرا للنسخ والتأليف والصياغة والبناء والوشي والتحبير وما أشبه ذلك، مما يوجب اعتبار الأجزاء بعضها مع بعض، حتى يكون لوضع كل حيث وضع، علة تقتضي كونه هناك، وحتى لو وضع في مكان غيره لم يصلح" [٣].

---

١ – يراجع: إعجاز القرآن (القاهرة: دار المعارف، الخامسة، ١٩٩٧م) (ص: ٣٥).

٢ – يراجع: المغني في أبواب التوحيد والعدل (القاهرة: الشركة العربية، الأولى، ١٣٨٠هـ) (١٦/١٩٧-١٩٩)؛ ومداخل إعجاز القرآن، أبو فهر محمود محمد شاكر (القاهرة–جدة: مطبعة المدني ومكتبتها، د. ط. ت) (ص: ٨٨، ٨٩).

٣ – دلائل الإعجاز (ص: ٤٢)، ويراجع: النظم القرآني وأثره على مقاصد التنزيل الحكيم، د. رجاء محمد عودة (الرياض: مجلة جامعة الملك سعود، المجلد ١١، العدد ١، ١٩٩٩م) (ص:٣٢).

ومما يؤكد أصالة دور المعاني وترتيبها في فكرة النظم ما قرره –رحمه الله– من التآزر والترابط بين اللفظ والمعنى؛ وما بناه على ذلك من القول بتبعية الألفاظ للمعاني في النظم، فالألفاظ – عنده– خدم للمعاني وتابعة لها، ولا يعني هذا عنده تفضيلَ المعاني على الألفاظ، وإنما مقصده تأكيد الترابط بينهما؛ بحيث لا يكون الفضل لأولهما، بل لهما معاً من خلال النظم والتأليف [١]، ولا شك أن هذه المفاهيم ليست بعيدًا عن فكرة الترتيب.

كما يصرح –رحمه الله– بفكرة ترتيب المعاني جليةً واضحة حين يقول: "والألفاظ لا تُفيد حتى تُؤلَّف ضرباً خاصّاً من التأليف؛ ويُعْمَد بها إلى وجه دونِ وجهٍ من التركيب والترتيب" [٢].

وكذلك حين يقول: "... وإذا بطل أن يكون ترتيب اللفظ مطلوبا بحال، لم يكن المطلوب أبدا إلا ترتيب المعاني ..." [٣].

ومما يؤكد أيضًا الدور المهم للمعاني وترتيبها في فكرة النظم، ما يفهم من كلام الشيخ من الارتباط الوثيق بين النظم والجانب العقلي والنفسي للمتكلم، وذلك في قوله: "وجملة الأمر أنه لا يكون ترتيب في شيء حتى يكون هناك قصد إلى صورة وصنعة، إن لم يقدم فيه ما قدم، ولم يؤخر ما أخر، وبدئ بالذي ثني به، أو ثني بالذي ثلث به، لم تحصل لك تلك الصورة وتلك الصفة، وإذا كان كذلك، فينبغي أن تنظر إلى الذي يقصد واضع الكلام أن يحصل له من الصورة والصنعة" [٤].

---

١ – يراجع: دلائل الإعجاز (ص: ٤٢، ٤٦، ٣٤١).

٢ – أسرار البلاغة (القاهرة–جدة: مطبعة المدني، دار المدني)، (ص: ٤).

٣ – دلائل الإعجاز (ص: ٦٢).

٤ – دلائل الإعجاز (ص: ٣٦٤)، ويراجع: دراسة الأسلوب بين المعاصرة والتراث (ص: ٣٦).

وتظهر مكانة ترتيب المعاني في قمة الذروة حين يقرر -رحمه الله- أن جهة إعجاز القرآن الكريم إنما هي في (النظم)، وأن النظم في رأيه ليس نظمًا للألفاظ، من حيث هي ألفاظ وأصوات، وإنما هو نظم للمعاني قبل ذلك [١].

وعلى خطى الشيخ عبد القاهر -يرحمه الله- بقي مفهوم الاتساق بمفهومه العام -الذي من مضامينه فكرة ترتيب المعاني- أحد أهم دلائل الإعجاز، ومداخله، عند البلاغيين بعده.

يقول صاحب الطراز (ت: ٧٤٥هـ) في سياق حديثه عن القرآن الكريم: "فإنه حاصل على طريقة واحدة في البلاغة، والفصاحة، وحسن الانتظام، وجودة الاتساق" [٢].

وعلى نهج هؤلاء السابقين وهداهم سارت الدراسات البلاغية والقرآنية، في العصر الحديث والمعاصر، لتتضمن إشارات ومفاتح مهمة، تتعلق بفكرة ترتيب المعاني.

من ذلك ما سطره أ.د/ محمد محمد أبو موسى، خلال حديثه عن منهج تحليل البيان القرآني عند الإمام الزمخشري، ودرسه لترتيب متعلقات الفعل في مباحث (علم المعاني)؛ حيث أشار لأهمية ترتيب المعاني، وذكر للترتيب

١ - يراجع: نظرية النظم بين المعتزلة والأشاعرة، أ.د/ أحمد أبو زيد (المغرب: بحوث ندوة المصطلح النقدي وعلاقته بمختلف العلوم، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة سيدي محمد بن عبد الله، فاس المغرب، ١٩٨٨م) (ص: ٣٤٥، ٣٤٦).

٢ - الطراز لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز (بيروت: المكتبة العصرية، الأولى، ١٤٢٣هـ) (٣/ ٢٤٠).

وجوهًا، مثل: السببية، ومراعاة أحوال النفس البشرية، تصاعدًا، وتنازلًا، إلى غير ذلك [١].

كما قرر العلماء المعاصرون أنّ "السياق القرآني والترتيب أحد وجوه الإعجاز، وأنّ في القرآن الكريم ضربين من الإعجاز البياني لا يتوقفان على عربية بيانه، وهما: ما فيه من بلاغة الإقناع العقلي، وما فيه من بلاغة تناسب المعاني، وتآخيها، وتناديها، وتناغيها أيضًا" [٢].

من خلال ما سبق تتأكد أصالة فكرة ترتيب المعاني في تكوين مفهوم النظم، وممارسته، وحضور تلك الفكرة في الدرس البلاغي؛ مما يشير لدور مهم للفكرة في مجال التفسير وعلوم القرآن، وهو ما يوضح معالمه المطلب الثالث.

المطلب الثالث: منزلة ترتيب المعاني من التفسير وعلوم القرآن:

يمكن للباحث عن منزلة ترتيب المعاني من التفسير وعلوم القرآن أن يلخص تلك المنزلة في عدد من المعالم، على النحو الآتي:

– أولًا: أن فكرة ترتيب المعاني مما يصدق عليه مفهوم الإحكام العام، الموصوف به القرآن الكريم، والوارد في نحو قوله تعالى: ﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ هُود: ١.

١ – يراجع: البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري وأثرها في الدراسات البلاغية (ص: ٤٦٠–٤٦٥)؛ وخصائص التراكيب: دراسة تحليلية لمسائل علم البيان (القاهرة: مكتبة وهبة، الرابعة، ١٤١٦هـ–١٩٩٦م) (ص: ٣٦٧–٣٧٢).

٢ – المعنى القرآني معالم الطريق إلى فقهه في سياق السورة: رؤية منهجية ومقاربة تأويلية (ص: ٩، ٢٩) بتصرف.

يقول الإمام الواحدي (ت: ٤٦٨ هـ) في تفسيره الآية: "... أحكمت آياته بعجيب النظم، وبديع المعاني، ورصين اللفظ، الذي يحسم طمع كل مفتر في التشبيه به، وآيات القرآن كلها معجزة، غير مقدور على مثلها لبديع نظمها" [١].

– ثانيًا: وثاقة العلاقة بين النظم والتفسير وامتدادها؛ فالتفسير مبنيٌ على النظم، بل يعتبر أثرًا من آثاره، ومحققًا لأحد أهم مقاصده، وهو (التدبر)، ولعل هذه العلاقة بين النظم والتفسير كافية في توكيد أهمية منزلة ترتيب المعاني في التفسير.

– ثالثًا: أن المتأمل واقع كتب التفسير على اختلاف عصورها الممتدة؛ يجد أن المفسرين قد أدركوا فكرة ترتيب المعاني في النظم القرآني، وأفادوا منها في درسهم لفهم مراد كلام الله تعالى، وأكرمنا الله تعالى بتسطيرهم ذلك في الكتب.

فأصالة الفكرة تُفهم بوضوح من كلام الإمام ابن عطية (ت: ٥٤٢ هـ)، خلال حديثه عن وجه إعجاز القرآن الكريم، وذلك حين يقرر أن "التحدي إنما وقع بنظمه، وصحة معانيه، وتوالي فصاحة ألفاظه"، وأيضًا حين يبين "أن وجه إعجازه: أن الله تعالى قد أحاط بكل شيء علما، وأحاط بالكلام كله علمًا، فإذا ترتبت اللفظة من القرآن علم بإحاطته أيَّ لفظة تصلح أن تلي الأولى، وتبيّن المعنى بعد المعنى، ثم كذلك من أول القرآن إلى آخره، والبشرُ معهم الجهل، والنسيان، والذهول، ومعلومٌ ضرورةً أن بشرا لم يكن قط محيطًا" [٢].

---

١ – التَّفْسِيرُ البَسِيْط (الرياض: عمادة البحث العلمي – جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الأولى، ١٤٣٠هـ) (٣٤٣/١١).

٢ – المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز (بيروت: دار الكتب العلمية، الأولى، ١٤٢٢هـ) (٥٢ /١).

كما يمكن الوقوف على أصالة مفهوم ترتيب المعاني في التفسير صراحةً أيضًا، في قول الإمام الرازي (ت: ٦٠٦هـ) عقب حديثه عن وجه ترتيب آيات سورة الفاتحة: "وهذا ترتيب شريف، رفيع، عالٍ، يمتنع في العقول حصول ترتيب آخر أشرف منه" [١].

ولم يقف الإمام الرازي –رحمه الله– عند حدود الإشارة أو التصريح بأصالة الفكرة، بل تعرض لدرس ترتيب المعاني بالفعل، وذلك مثلًا حين تناول وجوه الترتيب بين آيات الأسئلة الموجهة من الأمة لسيدنا رسول الله ﷺ، في القرآن الكريم، وذلك في قوله: "ولهذه الأسئلة ترتيب عجيب: اثنان منها في الأول، في شرح المبدأ، فالأول: قوله:﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي ﴾ البَقَرَة: ١٨٦، وهذا سؤال عن الذات، والثاني: قوله:﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ ﴾ البَقَرَة: ١٨٩ ، وهذا سؤال عن صفة الخلاقية، والحكمة في جعل الهلال على هذا الوجه، واثنان منها في الآخرة في شرح المعاد: أحدهما: قوله:﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ ﴾ طه: ١٠٥، والثاني: قوله:﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ﴾ الأَعْرَاف: ١٨٧، ونظير هذا أنه ورد في القرآن سورتان أولهما:﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ﴾ البَقَرَة: ١٦٨، أحدهما: في النصف الأول: وهي السورة الرابعة من سور النصف الأول، فإن أولاها: الفاتحة، وثانيتها: البقرة، وثالثها: آل عمران، ورابعتها: النساء، وثانيتهما: في النصف الثاني من القرآن، وهي أيضا السورة الرابعة من سور النصف الثاني، أولاها: مريم، وثانيتها: طه، وثالثتها: الأنبياء، ورابعتها: الحج، ثم﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ﴾ التي في النصف الأول تشتمل على شرح المبدأ؛ فقال:﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ﴾ النِّسَاء: ١، و﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ﴾ التي في النصف الثاني تشتمل

١ – مفاتيح الغيب (٢١٥/١).

على شرح المعاد؛ فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡۚ إِنَّ زَلۡزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيۡءٌ عَظِيمٞ﴾ الحَج: ١؛ فسبحان من له في هذا القرآن أسرارٌ خفية، وحكمٌ مطوية، لا يعرفها إلا الخواص من عبيده" [١].

ومن عجيب درسه في الباب أيضًا ما قام به –رحمه الله– في تفسيره، من ربط بين معنى (حصر العبادة في الله تعالى وحده) الوارد في سورة الذاريات، ومعنى كون سورة (الكافرون) متضمنة (التصريح بنفي عبادة الشركاء والأضداد)، ومعنى كون سورة (النصر) متضمنة جزاء من أطاع، وصرح بنفي عبادة الشركاء والأضداد، ومعنى كون سورة (المسد) متضمنة عقاب الكافر العاصي [٢]، ومعلوم ما بين سورة الذاريات وتلك السور الثلاث من مسافة.

– رابعًا: أن فكرة ترتيب المعاني في النظم القرآني جزءٌ أصيل، من درس علم المناسبات القرآنية.

ومما يشهد لذلك تعريفهم علم المناسبات بأنه: "علمٌ تعرف منه علل الترتيب" [٣].

كما نقل أهل علوم القرآن أن "ارتباط آي القرآن بعضها ببعض، حتى تكون كالكلمة الواحدة، متسقة المعاني، منتظمة المباني علمٌ عظيم" [٤]، وهذا الارتباط بلا شك ذو مفهوم عام، بحيث يشمل ارتباط المعاني شمولًا أوليًا.

يقول العلامة الفراهي (ت:١٣٤٩هـ): "اعلم أن القرآن يأتي بجملة من المعاني، على نظام مختلف، فيأتي بأمر واحد على أطوار، حتى أن العبارة

---

١ – مفاتيح الغيب (٢٨١/٥).

٢ – يراجع: مفاتيح الغيب (٣٤٨/٣٢).

٣ - نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، برهان الدين إبراهيم بن عمر البقاعي (القاهرة: دار الكتاب الإسلامي، د. ط. ت) (٥/١).

٤ - البرهان في علوم القرآن (١/ ٣٦).

تتبدل، والمعنى واحد؛ كما أن أمير الجيش يرتب رجاله على تآليف شتى، ولا يتبين حسن نظامه إلا لمن مهر في فنه، وأما من هو دونه فبما يعقبه من الأثر، من النصر والغلبة" [١].

– خامسًا: أن لفكرة ترتيب المعاني في النظم القرآني ارتباطًا أصيلًا بدرس إعجاز القرآن الكريم.

ومن أوضح ما يؤكد ذلك، وأعجبه، ما نُقل عن فريق من الملحدة ممن حق عليهم العجز، أمام سلطان القرآن، أنهم زعموا: "أن الكل قادرون على الإتيان بمثله، وإنما يتأخرون عنه لعدم العلم بوجه ترتيب، لو تعلموه لوصلوا إليه به" [٢].

والخلاصة أن لفكرة ترتيب المعاني دورًا مهمًا في الكشف عن لطائف التفسير، ومنزلة رئيسة من وجوه التناسب، والإعجاز، وسائر بحوث علوم القرآن الكريم؛ مما يدعو كل مشتغل بالتفسير وعلوم القرآن إلى ممارسة هذا الدرس، والمشاركة في تقريب الناس منه، وهذا ما يحاوله المبحث الثاني –بإذن الله تعالى وتوفيقه–.

١ - دلائل النظام (الهند: المطبعة الحميدية، الأولى، ١٣٨٨هـ) (ص: ٥٢).

٢ - إعجاز القرآن للباقلاني (ص: ٣١).

المبحث الثاني

دراسة لنماذج من ترتيب المعاني على مستوى القرآن الكريم كله

أتناول في هذا المبحث بالدراسة الموجزة خمسة نماذج لترتيب المعاني، على مستوى القرآن الكريم كله، أحاول من خلالها الكشف عن بعض اللطائف والأسرار لهذا الباب، واختص كل نموذج للدراسة بمطلب مستقل، على النحو الآتي:

المطلب الأول: الترتيب في معنى "دليل توحيد الله –تعالى– بطريق (التمانع)":

ورد معنى دليل التمانع [1] في ثلاث سور من سور القرآن الكريم، هي على الترتيب (الإسراء– الأنبياء– المؤمنون)، والآيات هي: قوله تعالى: ﴿قُل لَّوۡ

---

١ – دليل التمانع، هو أحد أدلة صفة الوحدانية أي: "وحدة الذات والصفات، بمعنى عدم النظير فيهما، وملخصه: " أن تعدد الآلهة المستجمعة لشرائط الإلهية يقتضي "إما" عدم وجود شيء من المخلوقات، وذلك هو فسادها في آن الإيجاد، "وإما" وجودها على وجه التفاوت والاختلاف المؤدي إلى فسادها غب الإيجاد. ذلك أنه "لو" توجهت إرادة الإلهين إلى شيء واحد لتعذر عليهما إحداثه؛ لاستحالة صدور أثر واحد عن مؤثرين. والقول بصدوره عن قدرة أحدهما مع استوائهما في القدرة، وفي توجه القصد؛ ترجيح بلا مرجح. و"لو" توجهت إرادة أحدهما إلى شيء، وإرادة الآخر إلى نقيضه؛ لم يمكن إحداثهما، وإلا لاجتمع النقيضان. وإحداث أحدهما دون الآخر؛ يلزمه الرجحان المذكور. و"لو" توجهت إرادة أحدهما إلى بعض الخلق والآخر إلى بعضه؛ إذًا لذهب كل إله بما خلق، ولكان هنا عالمان مختلفا النظام، فلا يلبث أن يطغى بعضها على بعض حتى يتماحقا. وكل أولئك باطل بالمشاهدة؛ إذ ترى العالم قد وجد غير فاسد، واستمر غير فاسد، ونراه بجميع أجزائه، وعلى اختلاف عناصره وأوضاعه –علوًا وسفلًا وخيرًا وشرًّا– يؤدي وظيفة جسم واحد، تتعاون أعضاؤه بوظائفها المختلفة على تحصيل غرض واحد. وهذه الوحدة في نظام الأفعال دليل على وحدة الفاعل المنظم لها –جل شأنه–". النبأ العظيم نظرات جديدة في القرآن الكريم، أ.د/ محمد عبد الله دراز (الدمّام: مكتبة المتنبي، الأولى، ١٤٤٠هـ– =

كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّٱبْتَغَوْا۟ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾ [الإسْرَاء : ٤٢ - ٤٣]، وقوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ۚ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ [الأَنبيَاء: ٢٢]، وقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [المُؤْمِنُون: ٩١] (١).

وقد ورد قوله تعالى: ﴿قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّٱبْتَغَوْا۟ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا ﴾ [الإسْرَاء: ٤٢] ردًا على من زعم أن مع الله آلهة أخرى، وهم عامة المشركين، وجاءت الآية على نمط الجدل بـ(تعليق الشرط بفعل محال، يستلزمه محال آخر) (٢)، ليبين (امتناع) ما توهموه على سبيل التقدير، لا التحقيق(٣)، وذلك في صيغة (أمر) من الله تعالى لنبيه ﷺ أن يخاطب "هؤلاء المشركين، الذين جعلوا مع الله إلها آخر(٤)، بأنه لو كان الأمر كما يدّعون من

=

٢٠١٩م) (ص: ١٣٢). ويراجع: روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، شهاب الدين محمود بن عبد الله الحسيني الألوسي (بيروت: دار الكتب العلمية، الأولى، ١٤١٥هـ) (٢٥/٩)؛ وشرح جوهرة التوحيد، الإمام العلامة الشيخ إبراهيم بن محمد الباجوري (دمشق: دار المصطفى، الأولى، ١٤٣١هـ-٢٠١٠م) (ص: ٨٤، ٨٥).

١ – يراجع: مفاتيح الغيب (٢/ ٣٢٥).

٢ – البرهان في علوم القرآن (٣٦٤/٢).

٣ – يراجع: عِنَايةُ القَاضِى وكِفَايةُ الرَّاضِى (حَاشِيةُ الشِّهَابِ عَلَى تفْسيرِ البَيضَاوِي)، شهاب الدين أحمد بن محمد بن عمر الخفاجي المصري الحنفي (بيروت: دار صادر، د. ط. ت) (٣٤٣/٦).

٤ – جامع البيان في تأويل القرآن، الإمام أبو جعفر محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي، الطبري (بيروت: مؤسسة الرسالة، الأولى، ١٤٢٠هـ – ٢٠٠٠م)

=

وجود آلهة أخرى مع الله؛ لابتغت تلك الآلهة ما يقربها إليه –تعالى–[1]؛ وهذا ما يفيد عدم ألوهيتها، أو لأظهرت تلك الآلهة المزعومة "دلالة ربوبيتهم وألوهيتهم؛ بإنشاء الخلائق، كما أظهر اللَّه – سبحانه – ألوهيته وربوبيته بما أنشأ من الخلائق، ولم يظهر ممن يدّعون لهم ألوهية إنشاءُ شيء من ذلك؛ فدل أنه ليس هنالك إله غيره" [2]، وهذا التأويل الثاني هو معنى دليل التمانع، وإن كان المآل في التأويلين واحدًا [3]. وقد جاء عقبها قوله تعالى: ﴿سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوّٗا كَبِيرٗا﴾ [الإِسْرَاء : ٤٣] على نمط التنزيه والتقديس؛ توكيدًا لمفهوم ما قبلها [4]، وتشترك المواضع الثلاثة في هذا النمط؛ بما يغني عن تكرار هذا المفهوم. وتتسق صورة المعنى الوارد في الآيتين مع مقاصد سورة الإسراء في" إثبات دلائل

=

(٤٥٣/١٧، ٤٥٤).

١ – يراجع: التفسير البسيط (١٣/ ٣٤٤)، وذلك مناسب لحال الكفار؛ حيث "كانوا يقولون: ﴿مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ﴾ [الزُّمَر : ٣]، فقال الله: لو كانت هذه الأصنام كما تقولون من أنها تقربكم إلى الله زلفى؛ لطلبت لأنفسها أيضا قربة إلى الله تعالى، وسبيلا إليه، ولطلبت لأنفسها المراتب العالية، والدرجات الشريفة من الأحوال الرفيعة، فلما لم تقدر أن تتخذ لأنفسها سبيلا إلى الله؛ فكيف يعقل أن تقربكم إلى الله؟!". مفاتيح الغيب (٢٠/ ٣٤٦).

٢ – تأويلات أهل السنة، الإمام أبو منصور محمد بن محمد بن محمود الماتريدي (بيروت: دار الكتب العلمية، الأولى، ١٤٢٦هـ – ٢٠٠٥م) (٥١/٧).

٣ – يراجع: تفسير التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي (تونس: التونسية للنشر، د. ط، ١٩٨٤م) (١١١/١٥).

٤ – يراجع: الهداية إلى بلوغ النهاية، الإمام أبو محمد مكي بن أبي طالب القيرواني، ثم الأندلسي القرطبي المالكي (الشارقة: جامعة الشارقة، الأولى، ١٤٢٩هـ – ٢٠٠٨م) (٤٢١٠/٦)؛ ومفاتيح الغيب (٢٠/ ٣٤٦).

تفرد الله بالإلهية"، مع مراعاة كون الآيات واحدة من نظم آيات في السورة تعالج المقصود ذاته [١].

وأما قوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَاۚ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الأَنبِيَاء: ٢٢] فمقصوده" الدلالة على توحيد الله تعالى، وأنه لا يجوز أن يكون معه إله سواه"، وقد جاء عقيب الإنكار على من اتخذوا أصنامًا من الأرض آلهة مع الله، في قوله تعالى: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُوٓاْ ءَالِهَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ﴾ [الأَنبِيَاء : ٢١]، والمقصود: نفي أن تكون آلهتهم آلهة على الحقيقة[٢]. ويلاحظ كون (إلا) وما بعده نعتًا بمنزلة (غير وما أضيفت إليه) [٣]، وقد أفاد ذلك أمرين: "أحدهما: وجوب أن لا يكون مدبرهما إلا واحدًا، والثاني: أن لا يكون ذلك الواحد إلا إياه وحده" [٤]، والفساد المذكور في الآية يحتمل وجوهًا: "أحدها: (لَفَسَدَتَا)، أي: لم يكونا من الأصل. والثاني: لم تكن منافع إحداهما متصلة بمنافع الأخرى للخلق؛ إذ يمنع كل واحد منهما منافع ما خلق هو من أن تصل إلى الأخرى، فإذا اتصلت منافع إحداهما بالأخرى، دل أنه صنع واحد وتدبير واحد، لا عدد. والثالث: لو كان عددًا، لكان لا يخرج تدبيرهما على حد واحد في كل عام، فإذا اتسق التدبير، وجرى الأمر في كل عام على سنن واحد؛ دل أنه تدبير واحد لا عدد؛ إذ لو كان لعدد لكان يختلف الأمر في كل عام، ولم يتسق

١ – يراجع: تفسير التحرير والتنوير (٨/١٥، ١١٠).

٢ – التفسير البسيط (٤٦،٤٥/١٥)؛ والمحرر الوجيز (٧٨/٤) بتصرف.

٣ – يراجع: المقتضب، أبو العباس محمد بن يزيد بن عبد الأكبر الثمالي الأزدي، المعروف بالمبرد (بيروت: عالم الكتب، د. ط. ت) (٤٠٨/٤).

٤ – الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، أبو القاسم محمود بن عمر بن أحمد الزمخشري، (بيروت: دار الكتاب العربي، الثالثة، ١٤٠٧ هـ) (٣/ ١١٠).

على سنن واحد، ولا جرى على أمر واحد" [١]. وتتسق صورة المعنى الوارد في الآية مع مقاصد سورة الأنبياء، في " التنبيه على حُجّة الوحدانيّة" [٢].

وأما قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [المُؤْمِنُون: ٩١] فقد ورد في سياق بيان مفاهيم تتعلق بالوحدانية؛ فجاءت الآية بالحق في شأن ما زعمه المشركون من اتخاذه –سبحانه– الولد والشريك، و بيان أنهم كاذبون فيما توهموه، وذلك أن "اتخاذ الأولاد لا يصحّ، كاتخاذ الشريك، والأمران جميعا داخلان في حدّ الاستحالة؛ لأن الولد أو الشريك يوجب المساواة في القدر، والصمدية تتقدّس عن جواز أن يكون له مثل أو جنس" [٣]. ويلاحظ أن الله –تعالى– ذكر " في أول الآية نفي الولد، ونفي الشريك، ثم ذكر الدليل على نفي الشريك، واقتصر عليه، ولم يذكر الدليل على نفي الولد؛ لأن الدليل على نفي الشريك يتضمن نفي الولد، وذلك أن الولد ينازع الأب في الملك منازعة الأجانب، فلو كان لله ولد لأظهر المنازعة كما يكون بين الإلهين، والملكين" [٤]. كما يلاحظ أن "في الكلام حذفٌ: وتقديره: ولو كان معه آلهةٌ، وإنما حذف للإيجاز، والإيجاز مستحسنٌ في كل مكان، وههنا أكمل حسناً؛ لئلاَّ يتكرر ذكر الإله؛ لأنه إبطالٌ على تقدير" [٥].

---

١ – تأويلات أهل السنة (٣٣٦/٧) بتصرف.

٢ – بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز، مجد الدين أبو طاهر محمد بن يعقوب الفيروزآبادى (القاهرة: المجلس الأعلى للشئون الإسلامية – لجنة إحياء التراث الإسلامي، الأولى، من ١٩٧٣–١٩٩٦م) (١/ ٣١٧).

٣ – لطائف الإشارات، الإمام أبو القاسم عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك القشيري (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، الثالثة، د.ت) (٢/ ٥٨٦).

٤ – التفسير البسيط (٥٠/١٦).

٥ – استخراج الجدال من القرآن الكريم، أبو الفرج ناصح الدين عبد الرحمن بن نجم بن عبد الوهاب الجزري السعدي العبادي، الحنبلي (الرياض: مطابع الفرزدق التجارية، الثانية، ١٤٠١هـ) (ص: ٨٤)، ويراجع: الطراز لأسرار البلاغة (٦٣/٢).

ومن الإيجاز أيضًا تقديم النتيجة في الآية على القياس، "ولتقديمها نكتة أن هذا المطلوب واضح النهوض لا يفتقر إلى دليل إلا لزيادة الاطمئنان" [١]. وتتسق الآية مع مقاصد سورة (المؤمنون)، في "تحقيق الوحدانية وإبطال الشرك ونقض قواعده" [٢].

وإن كانت الآيات الثلاث تشترك في إفادة معنى دليل التمانع أو ما يتصل به من البرهان على الوحدانية [٣]، إلا أن كل واحدة منها تمثل صورة مميزة في تشكيل معنى الدليل، باعتبارها معًا فصلًا واحدًا من المعاني.

وذلك أن قوله تعالى: ﴿قُل لَّوۡ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٗ كَمَا يَقُولُونَ إِذٗا لَّٱبۡتَغَوۡاْ إِلَىٰ ذِي ٱلۡعَرۡشِ سَبِيلٗا ۝٤٢ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوّٗا كَبِيرٗا﴾ [الإسراء : ٤٢ - ٤٣] يشكل إثارة للمسألة؛ لكونها قضيةً مهمة، وذلك بدلالة افتتاحها بـ (قل) الدالة

---

١ – تفسير التحرير والتنوير (١١٣/١٨).

٢ – المرجع السابق (٦/١٨).

٣ – ذكر الإمام ابن جزي –رحمه الله – في تفسيره قوله تعالى: ﴿لَوۡ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَاۚ فَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلۡعَرۡشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٢] أن في الظاهر من لفظ الآية استدلالًا آخر" أصح من دليل التمانع، وهو: أنه لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا، لما يحدث بينهما من الاختلاف والتنازع في التدبير وقصد المغالبة، ألا ترى أنه لا يوجد ملكان اثنان لمدينة واحدة، ولا ولّيان لخطة واحدة"، كما ذكر في تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنۡ إِلَٰهٍۚ إِذٗا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهِۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۚ سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [المؤمنون: ٩١] أن ما فيها من برهان ليس دليل التمانع، وإنما دليل آخر، وكأنه الدليل نفسه الذي ذكره قبل. التسهيل لعلوم التنزيل، أبو القاسم، محمد بن أحمد بن محمد بن عبد الله، ابن جزي الكلبي الغرناطي (بيروت: شركة دار الأرقم بن أبي الأرقم، الأولى – ١٤١٦هـ) (٢٠/٢) و(٥٦/٢). ويرى الباحث أن مآل الدليلين واحد؛ فلا مانع من إطلاق اسم (التمانع) على الكل.

على زيادة تخصيص مضمونها بالتبليغ، وبدلالة الجملة المعترضة [1] (كما يقولون)؛ للتنبيه على خطأهم، وأن تعدد الآلهة لا تحقق له؛ مما يستدعي منهم إمعان النظر في المسألة [2]، ومما يؤكد هذا التأويل قوله تعالى: ﴿إِذَا لَّٱبۡتَغَوۡاْ إِلَىٰ ذِي ٱلۡعَرۡشِ سَبِيلٗا﴾، بما يمثله من معنى المجاراة لهم، وخطابهم بما يعتقدون، ويشهد لهذا الفرق بين تعبير: ﴿لَّوۡ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٞ﴾ فإنه يتعلق بنفي النوع، وهو ما يناسب المقام الأول من الاستدلال، وتعبير: ﴿لَوۡ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ﴾ المتعلق بنفي جنس الآلهة، وهو الأنسب لمقامه.

ويمثل قوله تعالى: ﴿لَوۡ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَاۚ فَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلۡعَرۡشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الأَنبِيَاء: ٢٢] برهانًا آخر على قضية نفي التعدد، لكنه برهان يصعد بالمخاطب به إلى مقام غير الذي سبقه؛ بدلالة ما فيه من إيجاز، وقوة، وعمق، ودقة، مع جمعه بين خطاب العقل والعاطفة في آن واحد.

يقول العلامة أ.د محمد عبد الله دراز (ت:١٩٥٨م): "وانظر كيف اجتمع الاستدلال، والتهويل، والاستعظام في هذه الكلمات القليلة، بل الدليل نفسه جامع بين عمق المقدمات اليقينية، ووضوح المقدمات المسلمة، ودقة التصوير لما يعقب التنازع من "الفساد" الرهيب، فهو برهاني خطابي عاطفي معًا، هل تجد مثل هذا في كتاب من كتب الحكمة النظرية؟" [3].

---

١ – الاعتراض هو: أن يؤتى في أثناء الكلام، أو بين كلامين متصلين معنى، بجملة، أو أكثر لا محل لها من الإعراب؛ لنكتة سوى دفع الإيهام. : الأطول شرح تلخيص مفتاح العلوم، عصام الدين إبراهيم بن محمد ابن عربشاه الحنفي (بيروت: دار الكتب العلمية، د.ط.ت) (٢/ ٩٦)

٢ – يراجع: تفسير التحرير والتنوير (١٥/١١٠-١١٢).

٣ – النبأ العظيم (ص:١١٦).

وأما قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [المُؤْمِنُون: ٩١]، فيمثل المقام الأخير الأكثر صعودًا من الاستدلال، وهو أيضًا مقام الاستقرار؛ بدلالة اعتماده طريقة التسليم [١]، التي تبين يقين المستدل بصدق قضيته، وأن استمراره في الاستدلال ما هو إلا لإزالة شبه الخصم بصورة نهائية، وقطع حجته، وذلك بما تضمن من افتراض "جواز اتفاق الإلهين –على فرض التعدد– بادئ الأمر، أما عند التأمل فلا يصح الاتفاق؛ لأن مرتبة الألوهية تقتضي الغلبة المطلقة، كما يشير لذلك قوله تعالى: ﴿إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ﴾" [٢].

والخلاصة أن ترتيب المعاني في المواضع الثلاثة ترتيب (تصاعدي)؛ حيث بدأ من مقام أولي عام، تلاه مقام جمع بين البرهان القطعي والإقناعي، ثم كان مقام الإقناع والتقرير [٣].

المطلب الثاني: الترتيب في معنى "عدم تناهي كلام الله –تعالى–":

ورد معنى "عدم تناهي كلام الله –تعالى–" في سورتين من سور القرآن الكريم، هي على الترتيب (الكهف– لقمان)، والآيات هي: قوله تعالى:﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا﴾ **الكَهْف : ١٠٩،**

١ – التسليم: "هو أن يفرض المحال إما منفيا، أو مشروطا بحرف الامتناع؛ لكون المذكور ممتنع الوقوع؛ لامتناع وقوع شرطه، ثم يسلم وقوع ذلك تسليما جدليًا، ويدل على عدم فائدة ذلك على تقدير وقوعه". الإتقان في علوم القرآن، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، د. ط، ١٣٩٤هـ– ١٩٧٤م) (٦٥/٤).

٢ – شرح جوهرة التوحيد، الشيخ إبراهيم بن محمد الباجوري (ص: ٨٥) بتصرف.

٣ – يراجع: النكت في إعجاز القرآن (ص: ١٠٩)؛ وروح المعاني (٢٦/٩، ٢٥٨).

وقولـه تعـالى:﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ لُقْمَان : ٢٧.

وقـد جـاء قولـه تعـالى: ﴿ قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّي لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا ﴾ الكَهْـف : ١٠٩ عقـب " التنويـه بشـأن القـرآن فـي ابتـداء السورة، ثم ما أفيض فيها من أفانين الإرشاد، والإنذار، والوعد، والوعيد، وما ذكر فيها من أحسن القصص، مما فيه عبرة وموعظة، وما هو خفي من أحوال الأمم؛ إيذانًا بأن كل ذلك قليل من عظيم علم الله تعالى" [١]، والمعنى: لو كتبت كلمات علم الله وحِكمه، وكان البحر مدادا لها –والمراد بالبحر الجنس–؛ لنفد قبل أن تنفد الكلمات، ومقصود الآية: "أن معلومات الله –تعالى– غير متناهية" [٢]. وليس بخافٍ اتساق ذلك مع مقصود السورة في "وصف القرآن الكريم، الذي هو بعض كلمات الله، بأنه قيّم" [٣]. كما يلاحظ اتساق أنماط نظم الآية مع عظمة مقصودها، وذلك من خلال بنائها على نمط الشرط؛ للدلالة على الامتناع العقلي

---

١ – تفسير التحرير والتنوير (١٦/ ٥١) بتصرف. وقد ذكر الإمام أبو منصور الماتريدي (ت:٣٣٣هـ) وجهًا نفيسًا بديعًا لارتباط الآية بما قبلها، على اعتبار أن المراد بالكلمات: القرآن الكريم، وهو وجه يؤصل لفكرة ترتيب المعاني التي يعالجها هذا البحث، وذلك قوله: "يشبه أن يكون هذا خرج مقابل قوله: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾ [النَّحْـل : ٨٩]، وقوله: ﴿وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ﴾ [يُوسُـف : ١١١]، وجوابًا لما ذكر فيه تبيانًا لكل شيء، وتفصيل كل شيء، فقالوا: كيف يحتمل هذا المقدار أن يكون فيه تبيان كل شيء وتفصيل كل شيء؟ فقال –عَزَّ وَجَلَّ– عند ذلك جوابًا لقولهم: إنه لو بسط ما أودع فيه من نحو المعاني والحكمة، وشرح ذلك، فكتب بما ذكر؛ لبلغ القدر الذي ذكر وازداد". تأويلات أهل السنة (٢١٥/٧).

٢ – مفاتيح الغيب (٥٠٣/٢١)؛ ولطائف الإشارات (٢/ ٤١٦) بتصرف.

٣ – يراجع: مصاعد النظر (٢٤٣/٢).

لما تعلق به (نفاد كلمات الله)[١]؛ و"ذلك أن «الكلمات»: أي المعاني القائمة بالنفس، وهي المعلومات، ومعلومات الله سبحانه لا تتناهى، والْبَحْرُ متناه ضرورةً" [٢]، وللدلالة على التعظيم والإبلاغ، في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا﴾ [٣]. وكذلك ما "في إضافة الكلمات إلى اسم الرب المضاف إلى ضميره ﷺ في الموضعين من تفخيم المضاف وتشريف المضاف إليه، وما في إظهار البحر والكلمات في موضع الإضمار من زيادة تقرير" [٤].

وجاء قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ لقمان : ٢٧ لبيان "أن لعلم الله تعالى مظاهرَ، يبلغ بعضها إلى من اصطفاه من رسله بالوحي، مما تقتضي الحكمة إبلاغه، وأنه يستأثر بعلم ما اقتضت حكمته عدم إبلاغه، وأنه لو شاء أن يبلّغ ما في علمه؛ لما وفّت به مخلوقاته الصالحة لتسجيل كلامه بالكتابة، فضلًا على الوفاء بإبلاغ ذلك بواسطة القول"، وذلك عقب "وصفه الله تعالى بإحاطة العلم بجميع الأشياء ظاهرة، وخفية" [٥]، ومقصود الآية: "الإعلام بكثرة كلمات الله تعالى، وأنها في نفسها غير متناهية" [٦]، وتتضافر أنماط نظم الآية على تحقيق هذا المقصود العظيم؛ وذلك من بنائها على نمط الشرط، وإفراد الشجرة؛

---

١ – يراجع: نكت وتنبيهات في تفسير القرآن المجيد، أبو العباس البسيلي التونسي (المغرب: منشورات وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية، الأولى، ١٤٢٩هـ – ٢٠٠٨م) (٢٧١/٢).

٢ – المحرر الوجيز (٥٤٧/٣) بتصرف.

٣ – يراجع: تأويلات أهل السنة (٢١٥/٧).

٤ – إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، أبو السعود محمد بن محمد بن مصطفى العمادي (بيروت: دار إحياء التراث العربي، د. ط. ت) (٥/ ٢٥١).

٥ – تفسير التحرير والتنوير (١٨٠/٢١).

٦ – المحرر الوجيز (٤/ ٣٥٤) بتصرف.

للدلالة على تفصيل الشجر، وتقصيه شجرةً شجرةً، والتعبير بالفعل المضارع (يمده) لإفادة استمرار الإمداد حالًا بعد حال، وإيثار جمع القلة في (كلمات)؛ لإفادة: "أن كلماته القليلة لا يفي بها الأقلام؛ فكيف بكلامه الكَثير؟"، والتعبير بالعدد (سبعة) التام قصدًا للمبالغة، وإفادة الكثرة [١].

وهكذا تتقارب الآيتان مقصودًا ومعنى [٢]، لكن يبقى سر الترتيب فيما بينهما، باعتبار كونهما فصلًا واحدًا من المعاني! فما هو؟

والجواب: أن قوله تعالى: ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا﴾ الكَهْف : ١٠٩ يمثل مقام الإجمال في التعبير عن معنى عدم تناهي كلمات الله؛ بدلالة ما في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا﴾ من تعظيم في إجمال؛ فجاء قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ لُقْمَان : ٢٧ بتفصيل ما يدل على أن هذا المدد ليس له حد ولا نهاية، بالإضافة إلى ما في نظم الآية من تقريب للمقصود من خلال زيادة التصوير، من خلال ما استقر في أذهان الناس من المعاني [٣].

---

١ – يراجع: البحر المديد في تفسير القرآن المجيد، الإمام أبو العباس أحمد بن محمد بن المهدي ابن عجيبة الحسني (القاهرة: طبعة الدكتور حسن عباس زكي، الأولى، ١٤١٩ هـ) (٣٧٨/٤)؛ ورح المعاني (٩٦/١١، ٩٧).

٢ – مما تفيده الآيتان: أن كلام الله تعالى قديم؛ لأنه غير متناه. يراجع: تفسير ابن فورك، أبو بكر محمد بن الحسن بن فورك الأنصاري الأصبهاني (مكة المكرمة: جامعة أم القرى، الأولى، ١٤٣٠ هـ- ٢٠٠٩م) (٤٥٩/١).

٣ – يراجع: تأويلات أهل السنة (٧/ ٢١٦)؛ وروح المعاني (٣٧٢/٨).

والخلاصة أن ترتيب المعاني في الموضعين مبني على أسلوب الإجمال والتفصيل؛ ليتم تقرير المعنى، وبيان المقصود على أكمل وجه، وأتم صورة.

المطلب الثالث: الترتيب في معنى "لزوم الأدب في خطاب سيدنا رسول الله ﷺ":

ورد معنى "لزوم الأدب في خطاب سيدنا رسول الله ﷺ" في ثلاث سور من سور القرآن الكريم، هي على الترتيب (البقرة– النور– الحجرات)، والآيات هي قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقُولُواْ رَٰعِنَا وَقُولُواْ ٱنظُرْنَا وَٱسْمَعُواْ ۗ وَلِلْكَـٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [البَقَرَة : ١٠٤]، وقوله تعالى: ﴿لَّا تَجْعَلُواْ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا ۚ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا ۚ فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ النُّور : ٦٣، وقوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِىِّ وَلَا تَجْهَرُواْ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَـٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ الحُجُرَات : ٢.

وقد جاء قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقُولُواْ رَٰعِنَا وَقُولُواْ ٱنظُرْنَا وَٱسْمَعُواْ ۗ وَلِلْكَـٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [البَقَرَة : ١٠٤] توجيهًا من الله تعالى للمؤمنين بحسن اختيار الألفاظ، في خطابهم النبي ﷺ؛ سدًا للذرائع، وحذرًا من الوقوع في معنى فاسد [١]، ثم أمرهم بأن يحسنوا سماع ما يكلمهم به النبي ﷺ، ويلقيه

---

١ – ورد في سبب نهي المسلمين عن قول (راعنا) أقوال: "أحدها: أنها كلمة كانت اليهود تقولها لرسول الله ﷺ، على وجه الاستهزاء والسب؛ كما قالوا: ﴿سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَٱسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَٰعِنَا لَيًّۢا بِأَلْسِنَتِهِمْ﴾ [النِّسَاء : ٤٦]؛ فَنُهِيَ المسلمون عن قولها. والثاني: أن القائل لها كان رجلاً من اليهود دون غيره، يقال له: رفاعة بن زيد؛ فَنُهِيَ المسلمون عن ذلك. والثالث: أنها كلمة كانت الأنصار في الجاهلية تقولها؛ فنهاهم الله في الإسلام عنها، لما فيها من الجفاء. يراجع: النكت والعيون، أبو الحسن علي بن محمد بن محمد بن حبيب البصري البغدادي، الشهير بالماوردي (بيروت: دار الكتب العلمية، د. ط. ت) (١/ ١٦٩) =

عليهم [1]. وفي إيثار نظم الآية كلمة (انظرنا)، سواءٌ كانت بمعنى: "انتظرنا وأمهل علينا، أو: تفقدنا؛ من النظر، تعظيم للنبي ﷺ" [2]. يضاف إلى ما سبق ما في النظم من النداء بوصف الإيمان، الأدعى إلى الامتثال، والمشعر بالخصوصية في آنٍ، وكذلك ما فيه من النهي المتعقب بالأمر، مع التحذير من سوء عاقبة المخالفين، وفي كل ذلك اتساق مع عظمة مقصود الآية وخصوصية موضوعها، كما تتسق الآية بما تضمنته من الأدب، مع مقصود السورة في" إقامة الدليل على أن الكتاب هدى ليُتَّبَع في كل حال" [3].

=

بتصرف؛ وأسباب نزول القرآن، أبو الحسن علي بن أحمد بن محمد بن علي الواحدي، النيسابوري، الشافعي (الدمام: دار الإصلاح، الثانية، ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م)، والمحرر الوجيز (١/ ١٨٩).

١ - يراجع: معاني القرآن، أبو زكريا يحيى بن زياد بن عبد الله بن منظور الديلمي الفراء (القاهرة: الدار المصرية للتأليف والترجمة، الأولى، د. ت) (١/ ٦٩، ٧٠)؛ والهداية الى بلوغ النهاية (١/ ٣٨٤)؛ وتفسير الكشاف (١/١٧٤، ١٧٥). قال الإمام الرازي: "أما قوله تعالى: ﴿وَٱسۡمَعُواْۗ﴾ فحصول السماع عند سلامة الحاسة أمر ضروري خارج عن قدرة البشر، فلا يجوز وقوع الأمر به، فإذن المراد منه أحد أمور ثلاثة، أحدها: فرغوا أسماعكم لما يقول النبي ﷺ، حتى لا تحتاجوا إلى الاستعادة، وثانيها: اسمعوا سماع قبول وطاعة، ولا يكن سماعكم سماع اليهود حيث قالوا: ﴿سَمِعۡنَا وَعَصَيۡنَا﴾ [النِّسَاء : ٤٦]، وثالثها: اسمعوا ما أمرتم به حتى لا ترجعوا إلى ما نهيتم عنه تأكيدا عليهم. مفاتيح الغيب (٦٣٥/٣).

٢ - المحرر الوجيز (١/ ١٨٩) بتصرف، ورجح الإمام ابن عطية أن يكون المقصود بـ(انظرنا): "استدعاء نظر العين المقترن بتدبر الحال"، وهذا حسنٌ.

٣ - يراجع: نظم الدرر (٨٥/٢، ٨٦)؛ ومصاعد النظر (٩/٢).

وجاء قوله تعالى: ﴿ لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا ﴾ النُّور : ٦٣ خطابًا لأصحاب النبي ﷺ والمؤمنين أن "يعظّموه في الخطاب، ويحفظوا في خدمته الأدب، ويعانقوا طاعته، على مراعاة الهيبة والتوقير" [١]. وقد بُني نظم الآية على نمط الخطاب بالنهي الدال على الوجوب؛ بدلالة ترتيب العقاب على الإخلال به، مع الالتفات[٢]؛ لإبراز مزيد الاعتناء بشأنه، إيثار لفظ (الرسول) بدلالاته الشريفة، وتعقيب ذلك بالوعيد، ببيان علم الله تعالى المحقق، بالمتسللين مراوغة ومخالفة، من المنافقين؛ مما يوجب الحذر من عذاب الله ونقمته، في الدنيا والآخرة، لمن خالف عن أمره، ولا شك أن هذه الأنماط تتضافر

١ – لطائف الإشارات (٦٢٤/٢) بتصرف. وفي المراد بقوله تعالى: ﴿ لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا ﴾ أقاويل: أولها: أنه نهي من الله عن التعرض لدعاء رسول الله ﷺ بإسخاطه؛ لأن دعاءه يوجب العقوبة، وليس كدعاء غيره. الثاني: أنه نهي من الله عن دعاء رسول الله ﷺ بالغلظة والجفاء، وَلْيَدْعُ بالخضوع والتذلل: يا رسول الله، يا نبي الله. الثالث: أنه نهي من الله عن الإبطاء عند أمره، والتأخر عند استدعائه لهم، كما يتأخر بعضهم عن إجابة بعض. يراجع: تفسير الطبري (٢٣٠/١٩)؛ والنكت والعيون (١٢٨/٤)؛ والتفسير البسيط (٣٨٨/١٦، ٣٨٩)؛ والمحرر الوجيز (١٩٨/٤)؛ والتسهيل لعلوم التنزيل (٢/ ٧٧). وقد تُعقبت الرواية الأولى بالضعف، رغم ترجيح مدلولها من بعض المفسرين. يراجع: إيجاز البيان عن معاني القرآن، أبو القاسم، نجم الدين محمود بن أبى الحسن بن الحسين النيسابوري (بيروت: دار الغرب الإسلامي، الأولى، ١٤١٥هـ) حاشية تحقيق (٢/ ٦٠٧).

٢ – هو: التعبير عن معنى بطريق من الطرق الثلاثة (التكلم – الخطاب – الغيبة) بعد التعبير عنه بطريق آخر منها. والإيضاح في علوم البلاغة، أبو المعالي جلال الدين محمد ابن عبد الرحمن القزويني الشافعي (بيروت: دار الجيل، الثالثة، د.ت) (٢/ ٨٦).

على تحقيق مقصود الآية، من لزوم رعاية الأدب مع الجناب النبوي الشريف، كما تتسق الآية مع مقصود السورة في "تأكيد شرف النبي ﷺ" [1].

ثم جاء قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ فَوۡقَ صَوۡتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجۡهَرُواْ لَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ كَجَهۡرِ بَعۡضِكُمۡ لِبَعۡضٍ أَن تَحۡبَطَ أَعۡمَٰلُكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تَشۡعُرُونَ ﴾ الحُجُرَات : ٢ ليكشف عما ينبغي مراعاته من التأدب مع الجناب النبوي الشريف، من "حفظ حرمته، ومراعاة الأدب في خدمته وصحبته، وألّا ينظروا إليه بالعين التي ينظرون بها إلى أمثالهم، وأنه إذا كان بخلقه يلاينهم، فينبغي ألا يتبسّطوا معه متجاسرين، ولا يكونوا مع ما يعاشرهم به من تخلّقه عن حدودهم زائدين" [2]. وقد تضافرت أنماط

---

١ – يراجع: المحرر الوجيز (١٩٨/٤)؛ ونظم الدرر (٣٢٤/١٣، ٣٢٥)؛ ومصاعد النظر (٣١٠/٢)؛ وروح المعاني (٩/ ٤١٤، ٤١٥).

٢ – لطائف الإشارات (٤٣٨/٣). وقد ذكر الإمام أبو منصور الماتريدي أن الخطاب بما نهي عنه في الآيتين الأوليين من السورة ليس للصحابة –رضوان الله عليه–؛ لأن رسول الله ﷺ كان أجل في قلوبهم، وأعظم قدرًا؛ فلا يحتمل منهم سوى التعظيم له، والتوقير، والتشريف؛ لما عرفوا أن نجاتهم، وشرفهم، وعزهم في الدنيا والآخرة، بتعظيمه وتوقيره، وبالتالي فالأولى أن يكون ذلك متعلقًا بأهل الشرك، أو أهل النفاق، ومما يعضد ذلك تعقيب الآيتين بقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصۡوَٰتَهُمۡ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمۡتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡ لِلتَّقۡوَىٰۚ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٌ عَظِيمٌ ﴾ [الحُجُرَات : ٣]. وأما ما يتعلق بكون "الخطاب بذلك للذين آمنوا فهو على وجهين: أحدهما: أن ذلك منه ابتداء محنة امتحنهم بذلك، وأمرهم به من غير أن كان منهم شيء من ذلك، على طريقة نهي الرسل عن الشرك، وهم معصومون منه، ويحتمل أنه خاطب هَؤُلَاءِ الصحابة – رضي اللَّه عنهم – بذلك؛ ليتعظ بذلك من يشهد مجلسه من المنافقين وغيرهم من الكافرين؛ إذ كان يشهد مجلسه أهل النفاق وسائر الكفرة؛ لئلا يعاملوا رسول اللَّه ﷺ بمثل معاملة بعضهم بعضا، واللَّه أعلم". ولكلامه –رحمه الله– وجه حسنٌ، يشهد له النظم. يراجع: تأويلات أهل السنة (٣٢٤،٣٢٥/٩).

نظم الآية [١] على تحقيق مقصودها من "كمال التأدب مع الجناب النبوي الشريف"، ومقصود السورة، من "توقير النبي ﷺ، وحفظ ذلك، بإجلاله بالظاهر؛ ليكون دليلًا على الباطن، فيسمى إيمانًا" [٢].

وتشترك الآيات الثلاث في مقصود تحقيق "الأدب في مخاطبة النبي ﷺ، والكلام معه، وعنده" [٣]؛ مما يستدعي محاولة الكشف عن سر الترتيب بينها، باعتبارها تشكل فصلًا واحدًا من المعاني.

ويمكن أن يجاب عن سر ترتيبها بأنه ترتيب (تصاعدي)؛ وذلك أن كل آية منهم تمثل مقامًا؛ فأولها قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقُولُواْ رَٰعِنَا وَقُولُواْ ٱنظُرْنَا وَٱسْمَعُواْۗ﴾ [البَقَرَة : ١٠٤] تمثل مقام التخلية؛ تأديبًا للمؤمنين؛ بدلالة ما تضمنته الآية من التعريض باليهود في نفاقهم، ثم يأتي قوله تعالى:﴿ لَّا تَجْعَلُواْ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًاۚ ﴾ النُّور : ٦٣، بمقام أكثر

---

١ – وذلك من خلال بنائها على نمط إعادة النداء بوصف الإيمان؛ لاستدعاء مزيد الاستبصار والمبالغة في الاتعاظ، والدلالة على استقلال المنادى له، وزيادة الاهتمام به، والتعبير بالفعل المضارع الدال على التجدد والاستمرار؛ ليكونوا أبدًا متيقظين حذرين مما نهوا عنه، مع تعقيب تلك المنهيات بالوعيد الشديد الذي هو علة للنهي، حتى في حال الغفلة؛ لأن للمكلف قدرة على الاحتراز منه؛ مما يشعر بعظمة المقصود، وتأكيد المطلوب. يراجع: تفسير الطبري (٢٧٧/٢٢)؛ وتأويلات أهل السنة (٣٢٤/٩)؛ وتفسير الكشاف (٣٥١/٤ –٣٥٥)؛ ومفاتيح الغيب (٩٢/٢٨– ٩٤)؛ وأنوار التنزيل وأسرار التأويل، القاضي ناصر الدين أبو سعيد عبد الله بن عمر البيضاوي (بيروت: دار إحياء التراث العربي، الأولى– ١٤١٨هـ) (٥/ ١٣٣).

٢ – مصاعد النظر (٥/٣، ٦).

٣ – تفسير القرآن العظيم، الحافظ أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري، ثم الدمشقي (بيروت: دار الكتب العلمية، الأولى، ١٤١٩هـ) (٨١/٦).

صعودًا مما سبقه، وكأنه يجيب عن سؤال مستفاد مما سبقه؛ ليبين الصورة التي ينبغي أن يكون عليها خطاب النبي ﷺ، ودعاؤه، ثم يأتي قوله تعالى:﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ فَوۡقَ صَوۡتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجۡهَرُواْ لَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ كَجَهۡرِ بَعۡضِكُمۡ لِبَعۡضٍ ﴾ الحُجُـرَات : ٢ ليكشف المقام الأعلى من الأدب مع الجناب النبوي الشريف؛ بدلالة تسويته بين حالي الإدراك والغفلة في المؤاخذة، وذلك مما يوجب شدة الحذر، ودوام التنبه، حتى استنبط بعض المفسرين من الآية الأخيرة معنى: " لا تبدأوه بحديث حتى يفاتحكم" [١].

المطلب الرابع: الترتيب في معنى "تنزيه سيدنا رسول الله ﷺ عن الشعر":

ورد معنى "تنزيه سيدنا رسول الله ﷺ عن الشعر" في أربع سور من سور القرآن الكريم، هي على الترتيب (الأنبياء – يس– الصافات– الطور– الحاقة)، والآيات هي: قوله تعالى:﴿ وَمَا عَلَّمۡنَٰهُ ٱلشِّعۡرَ وَمَا يَنۢبَغِي لَهُۥٓۚ إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ وَقُرۡءَانٞ مُّبِينٞ ﴾ يس : ٦٩، وقوله تعالى:﴿ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓاْ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٖ مَّجۡنُونِۭ ﴾ الصَّـافَّات : ٣٦، وقوله تعالى:﴿ أَمۡ يَقُولُونَ شَاعِرٞ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيۡبَ ٱلۡمَنُونِ ٣٠ قُلۡ تَرَبَّصُواْ فَإِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلۡمُتَرَبِّصِينَ ٣١ ﴾ الطُّور : ٣١ ، ٣٢ ، وقوله تعالى:﴿ وَمَا هُوَ بِقَوۡلِ شَاعِرٖۚ قَلِيلٗا مَّا تُؤۡمِنُونَ ﴾ الحَاقَّة : ٤١.

وقد جاء قوله تعالى:﴿ وَمَا عَلَّمۡنَٰهُ ٱلشِّعۡرَ وَمَا يَنۢبَغِي لَهُۥٓۚ إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ وَقُرۡءَانٞ مُّبِينٞ ﴾ يس : ٦٩ تكذيبًا لمن قال بأن النبي ﷺ شاعر، توصلًا بذلك إلى رميه بالكذب [٢]، ومن ثم نفي صفة الوحي عن النبي ﷺ، والقرآن، "فأخبر الله –

١ – لطائف الإشارات (٤٣٨/٣)؛ وتفسير التحرير والتنوير (٦٥١/١)

٢ – قال الإمام أبو منصور الماتريدي –رحمه الله–: "وإنما "نسبوه إلى ما نسبوه من الشعر والسحر والكذب؛ تعنتًا منهم وعنادًا، يلبسون أمره بذلك على أتباعهم وسفلتهم؛ لئلا تذهب =

تعالى– أنه لم يعلمه الشعر، وما ينبغي له الشعر، وقد جعل اللَّه –تعالى– عجز رسوله ﷺ عن القيام بإنشاد الشعر من آيات رسالته، كما جعل عجزه عن تلاوة الكتاب من قبل، وكتابته، وخطه بيمينه آية من آيات رسالته؛ ليعلم أُولَئِكَ الذين قذفوه بالشعر، والافتراء من نفسه، والكذب على اللَّه، وبالسحر أنه إنما أخبر عن وحي عن اللَّه، لا كما يقولون هم، وهم على يقين، وعلم أنه ليس شاعرًا ولا ساحرًا ولا كذابًا!" [١].

وقد سلك النظم في نفي الشعر عن النبي ﷺ مسلك نفي الملزوم (العلم بالشعر)؛ ليجمع بذلك بين نفي الملزوم واللازم، في صورة بديعة، من الإيجاز

=

رياستهم ومنفعتهم". ويمثل هذا الاتهام صورة واقعيةً لعجز المعاندين لدعوة النبي ﷺ، وتخبطهم؛ حيث يحمل ما حكاه القرآن عنهم من قولهم: إنه شاعر، وإن هذا شعر "على أنهم نسبوه إلى أنه يشعر بما لا يشعر به غيره، من الصنعة اللطيفة في نظم الكلام، لا أنهم نسبوه في القرآن إلى أن الذي أتاهم به هو من قبيل الشعر الذي يتعارفونه على الأعاريض المحصورة المألوفة. أو يكون محمولاً على ما كان يطلق الفلاسفة على حكمائهم، وأهل الفطنة منهم، في وصفهم إياهم بالشعر؛ لدقة نظرهم في وجوه الكلام، وطرق لهم في المنطق، وإن كان ذلك الباب خارجاً عما هو عند العرب شعر على الحقيقة. أو يكون محمولا على أنه أطلقه بعض الضعفاء منهم في معرفة أوزان الشعر". يراجع: تأويلات أهل السنة (٨/ ٥٣٦) بتصرف؛ وإعجاز القرآن للباقلاني (ص:٢٢، ٥١)؛ ولطائف الإشارات (٣/٢٢٤)؛ ومفاتيح الغيب (٢٦/٣٠٤)، ولعل مما يؤكد هذا التخبط والاضطراب عندهم قوله تعالى: ﴿بَلْ قَالُوٓاْ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ بَلِ ٱفْتَرَىٰهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِـَٔايَةٍ كَمَآ أُرْسِلَ ٱلْأَوَّلُونَ﴾ [الأنبياء : ٥]؛ بدلالة ما فيه من نمط الإضراب، وتعتبر هذه الآية الكريمة في الترتيب منشأ معنى تنزيهه ﷺ عن الشعر.

١ – تأويلات أهل السنة (٨/ ٥٣٦) بتصرف، ويراجع دلائل الإعجاز (ص: ٢٧).

ودقة البرهان [1]، ثم أكد ذلك بنفي الإمكان العقلي أن يتأتى ذلك لهﷺ، أو يتسهل، بالجملة المعترضة في قوله تعالى: ﴿وَمَا يَنۢبَغِي لَهُۥٓ﴾ [2]، ثم أتبع النفي بإثبات الحقائق، بطريق حصر القرآن في كونه ذكرًا من الله تعالى، يوعظ به الإنس والجنّ، بقوله تعالى: سمحإِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ وَقُرۡءَانٞ مُّبِينٞسجى [3].

وأما قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓاْ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٖ مَّجۡنُونِۭ ٣٦ بَلۡ جَآءَ بِٱلۡحَقِّ وَصَدَّقَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ٣٧﴾ الصَّافَّات : ٣٦ ، ٣٧، فقد جاء ضمن موقف أخروي؛ حكايةً

---

١ – يراجع: تفسير ابن فورك (٢٠٥/٢).

٢ – قال الإمام ابن عطية –رحمه الله–: "وإصابته ﷺ الوزن أحيانا لا يوجب أنه يعلم الشعر، وكذلك قد يأتي أحيانا في نثر كلامه ما يدخل في وزن، كقوله يوم حنين: «أنا النبي لا كذب أنا ابن عبد المطلب»، كذلك يأتي في آيات القرآن وفي كل كلام، وليس كله بشعر، ولا هو في معناه"، وقال أيضًا: " وإنما منعه الله تعالى من الشعر؛ ترفيعا له عما في قول الشعراء، من التخييل، وتزويق القول، وأما القرآن فهو ذكر لحقائق وبراهين، فما هو بقول شاعر، وهكذا كان أسلوب كلامه عليه السلام؛ لأنه لا ينطق عن الهوى، والشعر نازل الرتبة عن هذا كله". المحرر الوجيز (٤٦٢/٤).

٣ – يراجع: معاني القرآن وإعرابه، أبو إسحاق إبراهيم بن السري المعروف بالزجاج (بيروت: دار عالم الكتب، الأولى ١٤٠٨هـ – ١٩٨٨م) (٤/ ٢٩٣)؛ وتفسير الكشاف (٢٦/٤، ٢٧)؛ وأحكام القرآن، القاضي أبو بكر محمد بن عبد الله، المعروف بابن العربي المعافري الاشبيلي المالكي (بيروت: دار الكتب العلمية، الثالثة، ١٤٢٤هـ – ٢٠٠٣م) (٢١/٤، ٢٢)؛ وأمالي ابن الحاجب، أبو عمرو جمال الدين عثمان بن عمر بن أبي بكر بن يونس، المعروف بابن الحاجب الكردي المالكي (عمَّان –بيروت: دار عمار – دار الجيل، الأولى، ١٤٠٩هـ – ١٩٨٩م) (٢٦٤/١)؛ وفتوح الغيب في الكشف عن قناع الريب (حاشية الطيبي على الكشاف)، شرف الدين الحسين بن عبد الله الطيبي (دبي: جائزة دبي الدولية للقرآن الكريم، الأولى، ١٤٣٤ هـ – ٢٠١٣ م) (٨٣/١٣)؛ وتفسير التحرير والتنوير (٥٧/٢٣).

لمقالة طائفة من مشركي قريش في الدنيا؛ ضمن سياق بيان علة استحقاقهم العذاب، حيث "بين تعالى أنهم إنما وقعوا في ذلك العذاب؛ لأنهم كانوا مكذبين بالتوحيد، وبالنبوة، وتكذيبهم بالنبوة هو قولهم: ﴿أَئِنَّا لَتَارِكُوٓاْ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٖ مَّجۡنُونِۭ﴾ يريدون النبي ﷺ" [١]. وهم في مقامهم هذا أيضًا مضطربون متناقضون؛ بدلالة جمعهم بين الشعر المقتضي رجاحة العقل، والجنون اللازم لذهابه، كما أن صدور هذا الكلام منهم لدليل على فرط جهلهم [٢].

ويلاحظ اتساق أنماط نظم الآية الأولى مع كون مضمونها بعض علة استحقاقهم العذاب، ومع مقصودهم في تنفير الناس من اتباعه ﷺ؛ بادعاء كون كلامه باطلًا؛ لذلك كان إيثار الفعل المضارع (يقولون) المفيد لاستمرارهم، الدال على بعدهم عن الإيمان كل البعد؛ مما حداهم إلى سوق قولهم على نمط الاستفهام الإنكاري المؤكد؛ ليدل على أن تكذيبهم صادرٌ منهم، مع علمهم بأن كل من يعلم بحالهم يراهم جديرين بترك ما هم عليه لأجل ما جاء به ﷺ ، بالإضافة إلى ما فيه من دلالة على تناقضهم، وضعف حجتهم؛ بدلالة جمعهم في وصفه ﷺ بين المتناقضات من الشعر، والجنون! [٣].

وفي مقابلة [٤] النظم السابق؛ كان نظم آية بيان تنزيهه ﷺ عن الشعر؛ وذلك من خلال ما بني عليه من الإضراب، المفيد بطلان زعمهم، مع نفي

---

١ – مفاتيح الغيب (٣٣١/٢٦) بتصرف، ويراجع: المحرر الوجيز (٤٧١/٤).

٢ – يراجع: تأويلات أهل السنة (٨/ ٥٥٨)؛ وتفسير ابن فورك (٢/ ٢١٩).

٣ – يراجع: نظم الدرر (٢٢٦/١٦).

٤ – "فقوله تعالى: بَلْ جاءَ بِالْحَقِّ مقابل لقولهم: «شاعر»؛ لأن الشاعر في الغالب كَذُوبٌ، وتصديق المرسلين في مقابلة «مجنون»؛ لأنه لا يكون إلا من العاقل". البحر المديد (٤/ ٥٩٦).

كلامهم، وتقرير كذبهم؛ وذلك قوله تعالى:﴿ بَلْ جَآءَ بِٱلْحَقِّ وَصَدَّقَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ ، أي: "إنه ﷺ لم يجئ بشعر، ولا بجنون،﴿ بَلْ جَآءَ بِٱلْحَقِّ ﴾ ، أي: الكامل في الحقية"[1]، "وتقرير هذا الكلام: أنه جاء بالدين الحق؛ لأنه ثبت بالعقل أنه تعالى منزه عن الضد، والند، والشريك؛ فلما جاء محمد ﷺ بتقرير هذه المعاني؛ كان مجيئه بالدين الحق" [2].ثم ألجمهم النظم الشريف "ببيان أن ما جاء به ﷺ من التوحيد هو ما أجمع عليه كافة الرسل –عليهم الصلاة والسلام–؛ فأين الشعر، والجنون من ساحته الرفيعة؟!" [3].

وأما قوله تعالى:﴿ أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ ﴿٣٠﴾ قُلْ تَرَبَّصُوا۟ فَإِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُتَرَبِّصِينَ ﴿٣١﴾ ﴾ الطُّور : ٣١ ، ٣٢ ، فقد جاء في سياق أمر الله من – تعالى– لنبيه ﷺ بالثبات على التذكير، وألا يكترث بأقوال قومه، ومن ضمن ما قالوه ليدل على تخبطهم [4]، وعجزهم عن مقابلة الحجة: "هو شاعر نتربص به حوادث الدهر، يكفيناه بموت، أو حادثة متلفة"، ومقصودهم من مقالتهم تلك: "تلبيس الأمر على أتباعهم؛ لصدهم عن الهدى" [5].

ويلاحظ بناء نظم الآية من مطلعها على نمط (أم) الجامعة بين إفادة الإضراب الإبطالي، والاستفهام الإنكاري؛ أي: بل أيقولون، وهذا ما أغنى عن

---

١ – نظم الدرر (٢٢٧/١٦)، ويراجع: عناية القاضي وكفاية الراضي (٧/ ٢٦٧).

٢ – مفاتيح الغيب (٣٣١/٢٦).

٣ – إرشاد العقل السليم (١٨٩/٧) بتصرف.

٤ – حيث أضربوا "عن القول بأنه كاهن، أو مجنون، وقالوا: شاعر نتربص به ريب المنون؛ لأن الشعراء كانوا عندهم أعظم حالًا من الكهان". فتوح الغيب (١٥/ ٥٨) بتصرف.

٥ – يراجع: تفسير الطبري (٤٧٨،٤٧٧/٢٢)؛ وتأويلات أهل السنة (٤٠٨/٩)؛ ومفاتيح الغيب (٢١٢/٢٨)؛ أنوار التنزيل (٥/ ١٥٤).

التصدي للرد على مقالتهم، والاكتفاء بالأمر بتهديدهم وتوعدهم﴿ قُلْ تَرَبَّصُوا۟ فَإِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُتَرَبِّصِينَ ﴾ ؛ وهذا ما يعنى وضوح بطلان مقالتهم، بمجرد التأمل[١]، كما يؤكد ذلك البطلانَ أيضًا تعقيبُه " بالإضراب عن جميع ما سبق، بقوله: ﴿أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَامُهُم بِهَٰذَآ﴾ [الطُّور : ٣٢]؛ فنسبهم إلى السفه والجهل، والقول بالتناقض، ثم ترقى في الإضراب إلى قوله: ﴿أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ [الطُّور : ٣٢]؛ أي: ليسوا بجاهلين، أي: أنهم أرباب النهى والأحلام؛ لكن طغيانهم، ومجاوزتهم الحد في العناد، هو الذي حملهم على ذلك القول بالتناقض" [٢].

وأما قوله تعالى:﴿ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ﴾ الحَاقَّة : ٤١؛ فجاء في سياق خطاب من الله تعالى مؤكد بالقسم بسائر الأشياء المبصرة وغير المبصرة، على إثبات أن القرآن الكريم قول رسول كريم؛ أي: وحي من الله إليه، ونفي ما نسبه المشركون إليه، من كونه قول شاعر، أو كاهن [٣]، ويصاغ الدليل كالآتي: "ما هذا القرآن بقول شاعر؛ لأن محمدًا ﷺ لا يُحسن قيل الشعر؛ فتقولوا: هو شعرٌ" [٤].

وفي النظم تسجيلٌ لتخبط المشركين في تلك النسبة، وضلالهم؛ بدلالة ترددهم بين النسبة للشعر تارة، والكهانة تارة [٥]. وفي مقابل ذلك "تأكيد محقق بـ(إن واللام)، بأن القرآن قول رسول كريم؛ ردًا على من كذبوا أن يكون من كلام

---

١ – يراجع: المحرر الوجيز (١٩١/٥)؛ ومفاتيح الغيب (٢٨/ ٢١٢)؛ والتسهيل لعلوم التنزيل (٢/ ٣١٣)؛ وتفسير التحرير والتنوير (٢٧/٦٠-٦٢).

٢ – فتوح الغيب (١٥/ ٥٩) بتصرف.

٣ – يراجع: تفسير الكشاف (٦٠٦/٤)؛ والمحرر الوجيز (٣٦٢/٥).

٤ – تفسير الطبري (٥٩٢/٢٣).

٥ – يراجع: أنوار التنزيل وأسرار التأويل (٥/ ٢٤٢).

الله، وفي إيثار لفظ (رسول) إيذانٌ بأن ذلك القول هو قول مرسله، وأُكد ذلك بقوله –تعالى– بعده: ﴿تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الحَاقَّة : ٤٣]، وفي الوصف (كريم) "إثبات الفضل لرسول الله ﷺ، على غيره من الرسل، وفي النظم نفي أن يكون ﷺ شاعرًا؛ بطريق الكناية [١] (نفي أن يكون القرآن الكريم قول شاعر)، وعقب النفي بقوله –تعالى–:﴿ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ﴾ ؛ ليفيد انتفاء ذلك من أصله، على طريقة التمليح [٢]، القريب من التهكم، كقوله –تعالى–: ﴿فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النِّسَاء : ٤٦]، وهو أسلوب عربي" [٣].

وهكذا تشترك المواضع الأربعة في معنى تنزيه النبي ﷺ عن الشعر صراحةً، أو بطريق الكناية، كما تشترك في التعبير عن حال التخبط لمن نسبوه ﷺ إلى الشعر وتحيرهم؛ فما السر في ترتيبها على هذا النسق؟

والجواب: أن الترتيب في هذا الفصل من المعاني مبني على نمط التفصيل والإجمال، وبيان ذلك كالآتي:

أن قوله تعالى:﴿ وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ﴾ يس : ٦٩، متعلق بأحوال سابقة له؛ فقد جاء ليعالج بالحقائق، حالة الاضطراب والتخبط، التي صورها قوله تعالى: ﴿بَلْ قَالُوٓاْ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ بَلِ ٱفْتَرَىٰهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِـَٔايَةٍ كَمَآ أُرْسِلَ ٱلْأَوَّلُونَ﴾ [الأَنبِيَاء : ٥]، كما جاء في سورة (يس) ليرد على المشركين، ويبطل صورة من صور إعراضهم عن القرآن؛ بالطعن في

١ – هي: ترك التصريح بذكر الشيء على ما ذكر ما يلزمه لينتقل من المذكور على المتروك. مفتاح العلوم (ص: ٤٠٢).

٢ – هو: "أن يشير المتكلم في كلامه إلى قصة، أو مثل، أو شعر، من غير ذكره". عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح (٢/ ٣٣٨).

٣ – تفسير التحرير والتنوير (١٤٢/٢٩) بتصرف.

آياته، بقولهم: القرآن شعر؛ فاقتضت تلك الأحوال مجيئه على نمط من التفصيل المؤسِس للباب؛ فتناول تنزيه القرآن الكريم عن أن يكون شعرًا، وتنزيه النبي ﷺ عن أن يكون شاعرًا؛ من خلال أسلوب قريب من (التخلية والتحلية)، جمع بين الصريح والكناية؛ ليكون أساسًا لكل ما يعقبه من مقامات. وأما قوله تعالى: ﴿ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓاْ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٖ مَّجۡنُونِۭ ﴿٣٦﴾ بَلۡ جَآءَ بِٱلۡحَقِّ وَصَدَّقَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴿٣٧﴾ ﴾ الصَّافَّات : ٣٦ ، ٣٧ ، ففي مقام حكايةٍ لموقف أخروي (جدلي)، في إطار بيان علة استحقاق عذابٍ واقع؛ لذا كان الرد فيه مركّزًا على حكاية نقض دعوى المخالف، وتكذيبها؛ ولذا صدر بـ (بل). وأما قوله تعالى:﴿ أَمۡ يَقُولُونَ شَاعِرٞ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيۡبَ ٱلۡمَنُونِ ﴿٣٠﴾ قُلۡ تَرَبَّصُواْ فَإِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلۡمُتَرَبِّصِينَ ﴿٣١﴾ ﴾ الطُّور : ٣١ ، ٣٢ ، فقد استغني فيه عن الرد المفصل؛ بالتهديد والتوعد، وهذا أنسب بحال المخالفين، من التخبط والتردد، واعتمادًا على ما سبقه من تفصيل. وأما قوله تعالى:﴿ وَمَا هُوَ بِقَوۡلِ شَاعِرٖۚ قَلِيلٗا مَّا تُؤۡمِنُونَ ﴾ الحَاقَّة : ٤١ ، فهو مقتصر على نفي معنى الشعر عنه ﷺ، بطريق الكناية؛ اعتمادًا على السابق له [١].

المطلب الخامس: الترتيب في معنى "التحذير من تزكية النفس":

ورد معنى "التحذير من تزكية النفس" في سورتين من سور القرآن الكريم، هي على الترتيب (النساء– النجم)، والآيات هي: قوله تعالى:﴿ أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُمۚ بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَآءُ وَلَا يُظۡلَمُونَ فَتِيلًا ﴾ النِّسَاء : ٤٩، وقوله تعالى: ﴿ فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمۡۖ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ ﴾ النَّجْم : ٣٢.

١ – يراجع: مفاتيح الغيب (٣٣١/٢٦)؛ وفتوح الغيب (٥٨/١٥)؛ وإرشاد العقل السليم (١٧٧/٧)؛ وروح المعاني (١٢/ ٤٥)؛ وتفسير التحرير والتنوير (٥٦/٢٣).

وقد جاء قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُم ۚ بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَآءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴾ النِّسَاء : ٤٩ تعجيبًا من حال قوم[١]، "بالغوا في تزكية أنفسهم [٢]؛ بمدحها؛ فذكر تعالى في هذه الآية أنه: لا عبرة بتزكية الإنسان نفسه، وإنما العبرة بتزكية الله له؛ وذلك لأن التزكية متعلقة بالتقوى، والتقوى صفة في الباطن، ولا يعلم حقيقتها إلا الله، فلا جرم لا تصلح التزكية إلا من الله؛ فلهذا قال تعالى: ﴿ بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَآءُ ﴾ [٣]، ومعنى: ﴿ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴾ : "أن الله لم يحرمهم ما هم به أحرياء، وأن تزكية الله غيرهم لا تعد ظلما لهم؛ لأن الله يقول الحق وهو يهدي السبيل، ولا يظلم أحدا" [٤].

يقول الإمام القشيري (ت:٤٦٥هـ): "من ركن إلى تزكية الناس له، واستحلى قبول الخواص له- فضلا عن العوام-؛ فهو من زكّى نفسه، ورؤية النّفس أعظم حجاب، ومن توّهم أنه بتكلّفه يزكّى نفسه: بأوراده، أو اجتهاده، بحركاته، أو سكناته؛ فهو في غطاء جهله" [٥].

---

١ - جمهور المفسرين على أن المراد بهم اليهود، وذكر بعضهم أنهم: اليهود والنصارى. يراجع: الهداية الى بلوغ النهاية (٢/ ١٣٥١)؛ والنكت والعيون (١/ ٤٩٥).

٢ - تعددت الأقوال في بيان كيفية تلك التزكية؛ كالآتي: "الأول: قولهم: نحن أبناء الله وأحباؤه. الثاني: تقديمهم أطفالهم لإمامتهم؛ زعماً منهم أنه لا ذنوب لهم. الثالث: هو قولهم: إن أبناءنا الذين ماتوا يستغفرون لنا ويزكوننا. الرابع: هو تزكية بعضهم لبعض؛ لينالوا به شيئاً من الدنيا. الخامس: يزكون أنفسهم بكون أكثر الأنبياء - عليهم السلام - إنما بعثوا من بني إسرائيل. السادس: لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كانَ هُوداً [البقرة: ١١١]". يراجع: تفسير الطبري (٨/٤٥١-٤٥٥)؛ وتأويلات أهل السنة (٣/٢٠٤، ٢٠٥)؛ والنكت والعيون (١/ ٤٩٤، ٤٩٥)؛ والمحرر الوجيز (٢/٦٥).

٣ - مفاتيح الغيب (١٠/١٠٠) بتصرف.

٤ - تفسير التحرير والتنوير (٥/٨٤).

٥ - لطائف الإشارات (١/٣٣٨).

وفي نظم الآية: تعجيب من حال المزكين أنفسهم، مع الإنكار عليهم، وبيان أن ذلك ليس لهم، وأنهم لا نصيب لهم من تزكية الله –تعالى–؛ بدلالة التصريح بإبطالها، وتقرير أن التزكية إنما تكون من الله؛ وحده، وفي نظم قوله تعالى: ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۖ وَكَفَىٰ بِهِۦٓ إِثْمًا مُّبِينًا﴾ [النِّسَاء : ٥٠] زيادة توبيخ مع تعجيب؛ بدلالة توجيه النظر إلى الكيفية، كأنه أمر مرئي؛ وذلك لبيان شدة كذبهم، وأن تزكيتهم أنفسهم كانت بالباطل [١]. وهو ما يتضافر لتحقيق مقصود الآيات، من ذم تزكية النفس بغير حق، والتحذير منه، كما يتسق مع مقاصد السورة أيضًا [٢].

وقد جاء قوله تعالى: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمْ ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ﴾ النَّجْم : ٣٢ نهيًا [٣] عن الشهادة للنفس بأنها زكية، بريئة من الذنوب والمعاصي، ومدحها بذلك، ويحتمل أن يكون نهيا عن أن يزكي بعض الناس بعضًا، والمنهي عنها تزكية السمعة، والمدح للدنيا، والقطع بالتزكية؛ لأن أصل التزكية إنما هو التقوى،

١ – يراجع: نظم الدرر (٢٩٨/٥–٣٠٠)؛ وإرشاد العقل السليم (١٨٧/٢)؛ ورح المعاني (٥٣/٣)؛ وتفسير التحرير والتنوير (٨٤/٥).

٢ – يراجع: مصاعد النظر (٨٨/٢).

٣ – ويحتمل النهي في الآية أن يكون متعلقًا بما تقرر قبله من علمه –تعالى– بأحوال الناس، ومصارف أمورهم، حين ابتدأ خلقهم من التراب بخلق آدم، وحينما صورهم في الأرحام. كما يحتمل أن يكون مترتبًا على "ما سبق من أن عدم المؤاخذة باللمم ليس لعدم كونه من قبيل الذنوب، بل لمحض مغفرته –تعالى–، مع علمه بصدوره عنكم؛ أي: إذا كان الأمر كذلك؛ فلا تثنوا عليها بالطهارة عن المعاصي بالكلية، أو بما يستلزمها من زكاء العمل، ونماء الخير، بل اشكروا الله –تعالى–، على فضله، ومغفرته". يراجع: مفاتيح الغيب (٢٩/ ٢٧٢)؛ وأنوار التنزيل (٥/ ١٦٠)؛ والبحر المحيط في التفسير، الإمام أثير الدين أبو حيان محمد بن يوسف بن علي ابن يوسف بن حيان الأندلسي (بيروت: دار الفكر، د. ط، ١٤٢٠هـ) (١٠/ ٢١)؛ وإرشاد العقل السليم (٨/ ١٦٢).

والله تعالى هو أعلم بتقوى الناس [1]. ومقصود الجملة: "تحذير المؤمنين من العجب بأعمالهم الحسنة، عجبًا يحدثه المرء في نفسه، أو يدخله أحد على غيره، بالثناء عليه بعمله" [2]، وهي بذلك تتسق مع مقصود سورتها، من "ذم الهوى لإنتاجه الضلال، ومدح العلم لإثماره الهدى، والحث على اتباع النبي ﷺ" [3]؛ فللجملة مع كل ما سبق تعلق؛ فتزكية النفس بغير حق من الهوى المذموم، ومعرفة أن الله هو المزكي لا غير من العلم المثمر، وفي اجتناب التزكية المذمومة اتباع للنبي ﷺ.

وإذا كان الموضعان -كما هو ظاهر- مشتركين في التحذير من تزكية النفس بغير حق، وفي ذم ذلك، فما وجه الترتيب بينهما؟

والجواب: أن العلاقة بين الموضعين (سببية)؛ حيث إن قوله تعالى:﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُم ۚ بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴾ النِّسَاء : ٤٩ ، نزل في شأن غير المسلمين، وجاء نظمه على نمط من التعجيب، والإنكار، والتوبيخ، والإبطال، مع تقرير أن الله -تعالى- وحده هو من يملك تزكية الإنسان؛ لذا كان أكثر بلاغًا في ذم تزكية النفس؛ وبالتالي يعتبر سببًا، وعلةً لما يعقبه من نهي عن تزكية النفس في قوله تعالى:﴿ فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمْ ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ ﴾ النَّجْم : ٣٢ ؛ ويؤيد ذلك أن آية سورة النجم نزلت في قوم من المؤمنين، كما أنها جملة معترضة بين جملة: ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ ۖ﴾ [النَّجْم : ٣٢]، وجملة: ﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى تَوَلَّىٰ﴾ [النَّجْم : ٣٣] ؛ فتكون جارية على جهة الإرشاد، والتحذير [4].

---

١ - يراجع: تفسير الطبري (٢٢/ ٥٤٠)؛ وتأويلات أهل السنة (٩/ ٤٣٢)؛ والمحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز (٥/ ٢٠٥).

٢ - التحرير والتنوير (٢٧/ ١٢٥) بتصرف.

٣ - يراجع: مصاعد النظر (٣/٣٥).

٤ - يراجع: مفاتيح الغيب (٢٩/٢٧٢)؛ وروح المعاني (١٤/٦٣)؛ وتفسير التحرير والتنوير (٢٧/١٢٣).

المبحث الثالث

دراسة لنماذج من ترتيب المعاني على مستوى السورة الواحدة

أتناول في هذا المبحث أيضًا خمسة نماذج لترتيب المعاني، على مستوى السورة الواحدة، بالدراسة الموجزة؛ أحاول من خلالها الكشف عن بعض اللطائف والأسرار لهذا الباب، واختص كل نموذج للدراسة بمطلب، على النحو الآتي:

المطلب الأول: الترتيب في معنى "مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله" (في سورة البقرة):

ورد معنى "مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله" في سورة البقرة في موضعين، والآيات هي: قوله تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتۡ سَبۡعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنۢبُلَةٖ مِّاْئَةُ حَبَّةٖۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البَقَرَةِ : ٢٦١]، وقوله تعالى: ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمُ ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثۡبِيتٗا مِّنۡ أَنفُسِهِمۡ كَمَثَلِ جَنَّةِۭ بِرَبۡوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٞ فَـَٔاتَتۡ أُكُلَهَا ضِعۡفَيۡنِ فَإِن لَّمۡ يُصِبۡهَا وَابِلٞ فَطَلّٞۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [البَقَرَةِ : ٢٦٥].

والأظهر أن يكون نظم قوله تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتۡ سَبۡعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنۢبُلَةٖ مِّاْئَةُ حَبَّةٖۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البَقَرَةِ : ٢٦١]، "راجعًا إلى قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰكُم﴾ [البَقَرَةِ : ٢٥٤]، وهو استئناف بياني؛ لأن قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ يَوۡمٞ لَّا بَيۡعٞ فِيهِ﴾ [البَقَرَةِ : ٢٥٤] الآية، يثير في نفوس السامعين الاستشراف لما يلقاه المنفق في سبيل الله يومئذ، بعد أن أُعقب بدلائل ومواعظ وعبر، وقد تهيأت نفوس السامعين إلى التمحض لهذا

المقصود؛ فأطيل الكلام فيه إطالة تناسب أهميته.. [١]. ومقصود الآية: "بيان شرف النفقة في سبيل الله، وحسنها، مع التحريض عليها" [٢].

وقد سلك النظم في التحريض على الصدقة، والحض عليها، مسلك التمثيل؛ حيث "شبه حال جزاء المنفقين في سبيل الله وبركتهم، بحال ما يحصله زارع حبة عظيمة، أَنْبَتَتْ له سَبْعَ سَنابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ، فالمجموع سبعمائة، فمضاعفة جزاء حسنة المنفق، كمضاعفة ثمرة الزارع، ووجه الشبه بين النفقة والحبة: أن يبارك الله في تلك النفقة؛ فتزداد وتنمو، على ما بارك في حبة واحدة؛ فصارت سبعمائة، ويحتمل أن يكون الجامع بينهما ما يرى ظاهرًا من تلف الصدقة وتلاشيها في أيدي الفقراء؛ فكيف تربى، وهي تالفة؟، فقيل: تربى كما تربى الحبة، بعدما بذرت في الأرض، وفسدت، ثم صارت مائة وزيادة" [٣].

قال الإمام ابن كثير (ت:٧٧٤هـ): "وهذا المثل أبلغ في النفوس من ذكر عدد السبعمائة، فإن هذا فيه إشارة إلى أن الأعمال الصالحة ينميها الله عز وجل لأصحابها، كما ينمي الزرع لمن بذره في الأرض الطيبة" [٤].

وقد جاء نظم قوله تعالى: ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمُ ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثۡبِيتٗا مِّنۡ أَنفُسِهِمۡ كَمَثَلِ جَنَّةِۭ بِرَبۡوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٞ فَـَٔاتَتۡ أُكُلَهَا ضِعۡفَيۡنِ فَإِن لَّمۡ يُصِبۡهَا وَابِلٞ فَطَلّٞۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [البَقَرَةِ : ٢٦٥] "عطفًا على مثل

---

١ – تفسير التحرير والتنوير (٣/ ٤١) بتصرف.

٢ – المحرر الوجيز (١/ ٣٥٥) بتصرف.

٣ – يراجع: تأويلات أهل السنة (٢/٢٥٠)؛ وتفسير البحر المحيط (٢/٦٣٥)؛ والبحر المديد (١/ ٢٩٥)؛ ومن بلاغة القرآن، د. أحمد أحمد بدوي (القاهرة: نهضه مصر، د. ط، ٢٠٠٥م) (ص: ١٦١)؛ وتفسير التحرير والتنوير (٣/ ٤١).

٤ – تفسير القرآن العظيم (١/٥٣٠).

الذي ينفق ماله رئاء الناس، في قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبْطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ ۖ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ فَتَرَكَهُۥ صَلْدًا ۖ لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّمَّا كَسَبُواْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٦٤﴾﴾ [البَقَرَة : ٢٦٤]؛ وذلك لزيادة بيان ما بين المرتبتين من البون وتأكيدا للثناء على المنفقين بإخلاص" (١).

وقد سلك نظم الآية في التحريض على الصدقة مسلك التمثيل، كما في الآية قبلها؛ حيث مثل حال المنفقين أموالهم، مبتغين مرضات الله، وراسخة نفوسهم غير مترددة، أو مصدقة وعد الله في شأن الصدقة، في الزكاء والبركة، بحال بستان بأرض مرتفعة –فإن شجره يكون أحسن منظراً، وأزكى ثمراً–، أَصابَها مطر شديد؛ فَأعطت صاحبها، أو الناس ثمرها ضعفا بعد ضعف، أو مثلي ما كانت تثمر في سائر الأوقات؛ بسبب ما أصابها من الوابل، أو أربعة أمثاله؛ بناء على الخلاف في أن الضعف هل هو المثل أو المثلان، وقيل: المراد تأتي أكلها مرتين في سنة واحدة، فَإِنْ لَمْ يُصِبْها مطر شديدٌ؛ يصيبها الرذاذ من المطر وهو اللين منه. وحاصل هذا التشبيه أن نفقات هؤلاء زاكية عند الله –تعالى–، لا تضيع بحال، وإن كانت تتفاوت بحسب تفاوت ما يقارنها، من الإخلاص، والتعب، وحب المال، والإيصال إلى الأحوج التقي، وغير ذلك" (٢).

---

١ – تفسير التحرير والتنوير (٣/ ٤١) بتصرف.

٢ – يراجع: أنوار التنزيل (١٥٩/١) روح المعاني (٣٦/٢)؛ وتفسير التحرير والتنوير (٣/ ٤١) بتصرف.

وقد تضافر نظم الآيتين على تحقيق مقصود السورة، من"إقامة الدليل على أن الكتاب هدى؛ ليُتَّبَع في كل حال" [١].

ويلاحظ اشتراك الآيتين في تمثيل حال المنفقين، والمقصود، ووجه الشبه، مع اختلاف الممثل به في كلٍ؛ فما وجه الترتيب بينهما؟

والجواب: أن الترتيب في الموضوعين (تصاعدي)، يبدأ من مقام أقل، إلى مقام أعلى؛ فإن التمثيل في قوله تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتۡ سَبۡعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنۢبُلَةٖ مِّاْئَةُ حَبَّةٖۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البَقَرَة : ٢٦١] بحبة أنبتت سبع سنابل، "وهو تشبيه غير كثير التركيب؛ لتحصل السرعة بتخيل مضاعفة الثواب"، وهذا يمثل مقامًا أوليًا في التشبيه والتمثيل.

وأما قوله تعالى: ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمُ ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثۡبِيتٗا مِّنۡ أَنفُسِهِمۡ كَمَثَلِ جَنَّةِۭ بِرَبۡوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٞ فَـَٔاتَتۡ أُكُلَهَا ضِعۡفَيۡنِ فَإِن لَّمۡ يُصِبۡهَا وَابِلٞ فَطَلّٞۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [البَقَرَة : ٢٦٥]، فيمثل المقام التالي تصاعدًا؛ لأنه قد "جاء عقب تمثيل حال المنفق ماله رئاء الناس؛ لذا أعيد تمثيل حال المنفق ابتغاء مرضاة الله بما هو أعجب في حسن التخيل، وبالأكثر تركيبًا؛ لأن الأمثال تبهج السامع كلما كانت أكثر تركيبا، وضُمنت الهيئة المشبه بها أحوالا حسنة، تكسبها حسنا؛ ليسري ذلك التحسين إلى المشبه، وهذا من جملة مقاصد التشبيه؛ فيكون ذلك أبلغ إلى تحصيل غرض المثل، من التحريض على الصدقة، وبيان حسنها" [٢].

---

١ – مصاعد النظر (٢/ ٩).

٢ – تفسير التحرير والتنوير (٣/ ٥٠) بتصرف، ويراجع: من بلاغة القرآن (ص:١٦١).

المطلب الثاني: الترتيب في معنى "عاقبة الذين كذبوا بآيات الله واستكبروا عنها" (في سورة الأعراف):

ورد معنى "جزاء الذين كذبوا بآياتنا واستكبروا عنها" في سورة الأعراف في موضعين، والآيات هي: قوله تعالى:﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسۡتَكۡبَرُواْ عَنۡهَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [الأَعْرَاف : ٣٦]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسۡتَكۡبَرُواْ عَنۡهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمۡ أَبۡوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلۡجَمَلُ فِي سَمِّ ٱلۡخِيَاطِۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُجۡرِمِينَ ﴾ [الأَعْرَاف : ٤٠].

وقد جاء قوله تعالى:﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسۡتَكۡبَرُواْ عَنۡهَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [الأَعْرَاف : ٣٦]، في سياق تعريف الله تعالى الخلق بـ"ما أعدَّ لحزبه وأهل طاعته والإيمان به وبرسوله، وما أعدّ لحزب الشيطان وأوليائه، والكافرين به وبرسله" [١]، فالصنف الأول يعبر عنه قوله تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ إِمَّا يَأۡتِيَنَّكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَقُصُّونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِي فَمَنِ ٱتَّقَىٰ وَأَصۡلَحَ فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾ [الأَعْرَاف : ٣٥]، والثاني تعبر عنه الآية؛ وبهذا يظهر مقصود الآية، في بيان ثمرة وفائدة الرسالة، وبهذا تتسق مع مقصود سورتها [٢].

ويلاحظ بناء نظم الآية على نمط الاسم الموصول، المضمن معنى الشرط، والمفيد للعموم؛ بما فيه من الإبهام والشيوع، وإيثار الفعل الماضي،

---

١ – تفسير الطبري (٤٠٧/١٢).

٢ – يراجع: المحرر الوجيز (٣٩٧/٢)؛ ومصاعد النظر (١٣٠/٢). ومعنى الآية: "أن من كذب بآيات الله المرسلة إلى رسله، وجحد توحيد الله، وكفر بما جاء به رسله، واستكبر عن تصديق حُجَجه وأدلّته؛ فهم في نار جهنم ماكثون، لا يخرجون منها أبدًا". تفسير الطبري (٤٠٧/١٢) بتصرف.

للإشارة إلى تحقق وقوع (التكذيب) و(الاستكبار)، والتعدية بـ (عن) الدالة على التجاوز، ثم تعقيب ما يقع موقع الشرط بالفاء المناسبة لمعنى الشرط، والدالة على قوة الارتباط بين الطرفين، وإيثار اسم الإشارة، الدال على الإبعاد، مع إضافتهم إلى النار؛ لإفادة علاقة اللزوم، وتعقيب ذلك بجملة البدل الاسمية؛ لبيان ثبوت الحكم ودوامه [1].

وجاء قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُواْ عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ [الأَعْرَاف : ٤٠] عقب بيان ثبوت العذاب لمن افترى على الله كذبًا، أو كذب بآياته، "ولما جرت العادة بأن أهل الشدائد يتوقعون الخلاص؛ أخبر بهذه الآية أن هؤلاء ليسوا كذلك، لأنهم أنجاس فليسوا أهلاً لمواطن الأقداس" [2].

ويلاحظ بناء النظم على أنماط تناسب شدة الموقف، وحقّيته؛ وذلك من "إيثار الإظهار على الإضمار (إن الذين)؛ تعميماً وتعليقاً للحكم بالوصف، وتعدية التكذيب بالباء؛ لتضمنه معنى الكفر، وإضافة الآيات إلى ضمير

---

١ – يراجع: المحرر الوجيز (٣٩٦/٢)؛ ونظم الدرر (٣٩٥/٧)؛ وتفسير التحرير والتنوير (١١١/٨)؛ وزهرة التفاسير، الشيخ محمد أبو زهرة (القاهرة: دار الفكر العربي، د.ط.ت) (٢٨٢٨/٦).

٢ – نظم الدرر (٣٩٩/٧) بتصرف. وقد اختلف المفسرون في عموم المقصود بالخطاب وخصوصه؛ فذهب بعضهم إلى كون النظم خاصًا، في شأن صعود أرواحهم، وقيل: لا يصعد لهم في حياتهم إلى الله قول ولا عمل، وذهب البعض إلى القول بالعموم؛ ويكون معنى الآية: لا يرتفع لهم عمل، ولا روح، ولا دعاء، ولا تنزل لهم بركات. يراجع: تفسير الطبري (٤٢١/١٢)؛ والهداية الى بلوغ النهاية (٤/ ٢٣٦٢)؛ وتفسير الكشاف (١٠٣/٢)؛ والمحرر الوجيز (٤٠٠/٢)؛ وتفسير القرآن العظيم (٣/ ٣٧٠)؛ ونظم الدرر (٣٩٩/٧).

العظمة، وإيثار الفعل الماضي المناسب لاستحقاقهم، والدال على تحقق وقوع ذلك منهم، ثم ختمت بنفي الله عز وجل عنهم دخول الجنة، وتعليق كونه بكون محال لا يكون، وهو أن يدخل الجمل في ثقب الإبرة حيث يدخل الخيط" [١].

وهكذا تشترك الآيتان في بيان معنى "عاقبة الذين كذبوا بآيات الله واستكبروا عنها"، وتتحدان لفظًا في جملة (المسند إليه)، ثم يختلف نظم جملة العاقبة (المسند) في كل منهما؛ فما سر الترتيب بينهما؟

والجواب: أن وجه الترتيب بين الآتين مبني على علاقة من (الإجمال والتفصيل)؛ حيث يشكلان معًا صورة لمعنى "عاقبة الذين كذبوا بآيات الله واستكبروا عنها"؛ يمثل فيها قوله تعالى:﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسۡتَكۡبَرُواْ عَنۡهَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [الأَعْرَاف : ٣٦] الجزء (الإجمالي) من المعنى، ولعل هذا أنسب بكون الخطاب المتعلقة به (عامًّا لجميع الأمم/ في الأزل)، ثم جاء قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسۡتَكۡبَرُواْ عَنۡهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمۡ أَبۡوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلۡجَمَلُ فِي سَمِّ ٱلۡخِيَاطِۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُجۡرِمِينَ ﴾ [الأَعْرَاف : ٤٠]؛ "لإتمام الكلام في وعيد الكفار، وتفصيله؛ بشرح كيفية ذلك الخلود، في حق أولئك المكذبين المستكبرين"[٢]؛ فقد جاء قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسۡتَكۡبَرُواْ عَنۡهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمۡ أَبۡوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلۡجَمَلُ فِي سَمِّ ٱلۡخِيَاطِۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُجۡرِمِينَ ﴾ [الأَعْرَاف : ٤٠] "لتحقيق خلود الفريقين في النار، الواقع في قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسۡتَكۡبَرُواْ عَنۡهَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [الأَعْرَاف : ٣٦]؛

---

١ – يراجع: المحرر الوجيز (٢/ ٤٠٠)؛ ونظم الدرر (٣٩٩/٧)؛ وتفسير التحرير والتنوير (١٢٦/٨)؛ وزهرة التفاسير (٢٨٣٧/٦).

٢ – مفاتيح الغيب (١٤/ ٢٤٠) بتصرف.

فأخبر –سبحانه– بأنه حرمهم أسباب النجاة؛ فسد عليهم أبواب الخير والصلاح، وبأنه حرمهم من دخول الجنة" [1].

المطلب الثالث: الترتيب في معنى "الغاية من إنزال القرآن على سيدنا رسول الله" (في سورة النحل):

ورد معنى "الغاية من إنزال القرآن الكريم على سيدنا رسول الله ﷺ" في سورة النحل في ثلاثة مواضع، والآيات هي: قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ النَّحل: ٤٤، وقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۙ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ النَّحل : ٦٤. ، وقوله تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النَّحل : ٨٩]

وجاء قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ النَّحل: ٤٤ عطفًا على خطاب تضمن "إبطالًا لشبهتهم في إنكار نبوته؛ لكونه بشرًا، فلا يليق بأن يكون سفيرا بين الله والناس؛ وذلك بقياس التمثيل بالرسل الأسبقين، الذين لا تنكر قريش رسالتهم، مثل نوح، وإبراهيم– عليهما السلام–" [2]، وهو قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ ۖ فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٤٣﴾ بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ ۗ﴾ [النَّحل : ٤٣، ٤٤]، ويعتبر من باب عطف الخاص على العام، "وفي الاقتصار على إنزال الذكر عقب قوله: بالبينات والزبر إيماء إلى أن الكتاب المنزل على محمد صلى الله عليه وسلم هو بينة وزبور معا، أي هو معجزة وكتاب شرع. وذلك من مزايا

١ – تفسير التحرير والتنوير (١٢٥/٨) بتصرف.

٢ – المرجع السابق (١٦٠/١٤).

القرآن التي لم يشاركه فيها كتاب آخر، ولا معجزة أخرى" [١]. ومقصود الآية: بيان غاية وثمرة نزول القرآن على قلب النبي ﷺ، وهي: التبيين على عمومه، ويشمل: تبيينه بسرد نَصَّهُ وتعليمِهِ، وتبيين معانيه بتفسير مُشكله، حتى يدخل فيه ما سنته السنة من الشريعة [٢]، وحصول التفكر في عجائبه وأسراره، فيخوضون بسفن أفكارهم في تيار بحر معانيه وأنواره، فينتبهون للحقائق والشرائع" [٣].

وقد تضافرت أنماط النظم الشريف على تحقيق مقصود الجملة؛ "وذلك بإيثار التعبير بالذكر؛ الدال على كونه تذكيرًا وتنبيهًا للغافلين، وتعريف لفظ (الناس)؛ لإفادة العموم، والإظهار في قوله تعالى: ما نزل إليهم ليفيد أن ماصدق الموصول غير ماصدق الذكر المتقدم، وفي إيثار صيغة (التفعيل) مناسبة للبيان الشافي على التفصيل، ثم ختم الخطاب الشريف بالتفكر؛ الدال على إرادة أن يتأملوا؛ فيتنبهوا للحقائق، وما فيه من العبر، ويحترزوا عما يؤدي إلى مثل ما أصاب الأولين من العذاب" [٤].

وجاء قوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِي ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِۖ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ﴾ النَّحل : ٦٤ "في سياق خطاب مؤكد من

---

١ – تفسير التحرير والتنوير (١٦٣/١٤).

٢ – وهذا الوجه بناءً على كون مفهوم التبيين في الآية عامًا؛ بمعنى إيضاح المعاني، وقد يحمل على معنى (التبليغ)؛ وبناءً على الوجهين يتعدد مفهوم التفكر؛ فعلى الأول يكون تفكرًا فيما بيّنه الرسول ﷺ من معاني القرآن الكريم؛ فتحصل فوائد العلم والبيان ، وعلى الوجه الثاني يتفكروا بأنفسهم في معاني القرآن وفهم فوائده. يراجع: تفسير التحرير والتنوير (١٦٣/١٤، ١٦٤).

٣ – البحر المديد (١٣١/٣) بتصرف.

٤ – يراجع: إرشاد العقل السليم (١١٦/٥، ١١٧)؛ وتفسير التحرير والتنوير (١٦٣/١٤).

الله –تعالى– لنبيه ﷺ، يفيد إرسال الرسل إلى الأمم من قبله، كما أرسله إلى قومه؛ فزين لهم الشيطان أعمالهم، فضلوا كما ضل قومه؛ فأهلكهم الله، ثم أرشده في هذه الآية إلى أن يبين لهم؛ ليقيم الحجة، ويزيح العلة"[1]؛ و على هذا يكون مقصود الآية: إرشاد النبي ﷺ إلى أن يبين للناس ما اختلفوا فيه من جحد الربوبية، وتشريكهم الأصنام في الألوهية؛ ليكون ذلك هدىً ورحمة للمؤمنين منهم" [2].

ويُلاحظ بناء النظم على نمط الحصر؛ "لقصد الإحاطة بالأهم من غاية القرآن وفائدته التي أنزل لأجلها، والتعريض بتفنيد أقوال من حسبوا من المشركين أن القرآن أنزل لذكر القصص؛ لتعليل الأنفس في الأسمار، ونحوها" [3].

وجاء قوله تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النَّحل : ٨٩] "عطفًا [4] على جملة: ﴿وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ [النَّحل : ٨٩] ؛ أي: أرسلناك شهيدا على المشركين، وأنزلنا عليك القرآن؛ لينتفع به المسلمون، فرسول الله ﷺ شهيد على المكذبين، ومرشد للمؤمنين. ومقصود الجملة: "تعداد النعم على المؤمنين، من الإرشاد، والجزاء على الامتثال، وبيان بركات هذا الكتاب المنزل لهم" [5].

---

١ – يراجع: مفاتيح الغيب (٢٣٠/٢٠)؛ ونظم الدرر (١٩٠/١١).

٢ – يراجع: المحرر الوجيز (٤٠٤/٣).

٣ – تفسير التحرير والتنوير (١٤/ ١٩٦) بتصرف.

٤ – وقيل: إنه كلام مستأنف؛ بناءً على اختلاف زمان الجملتين. وله وجه. يراجع: روح المعاني (٤٥١/٧).

٥ – تفسير التحرير والتنوير (١٤/ ٢٥٢) بتصرف.

وفي أنماط نظم الجملة اتساق مع مقصود الآية، وذلك بإيثار صيغة (التفعيل) الدالة على التعاهد، وصيغة (التبيان) الدالة على المبالغة؛ أي بيانًا بليغًا، مع (كل شيء) الدال على العموم والشمول العرفي؛ فلا يكون لهم عذرٌ، ثم خص من مظاهر الفضل الإلهي الدائمة: ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ ؛ لأهميتها، فالهدى ما يرجع من التبيان إلى تقويم العقائد والأفهام، والإنقاذ من الضلال. والرحمة ما يرجع منه إلى سعادة الحياتين الدنيا والأخرى، والبشرى ما فيه من الوعد بالحسنيين، الدنيوية، والأخروية" [١].

ومن وجوه ترتيب الآية أيضًا: وقوعها بعد تبيين أصول العقيدة، وقبل تبيين أصول الفضيلة العملية؛ ومن جملة السابق واللاحق، يتألف البرهان على صدق قضية "أن الكتاب تبيان لكل شيء" [٢].

ويلاحظ اشتراك المواضع الثلاثة في كونها تعبر عن معنى غاية نزول القرآن، وثمرته، مع كونها في سورة واحدة؛ مما يدعو إلى التساؤل حول وجه ترتيبها؟

والجواب: أن وجه الترتيب بين المواضع (تكاملي)؛ ذلك أن كل موضع من تلك المواضع الثلاثة؛ يعالج حالًا، ومقامًا يتميز عن نظيره، ويؤدي دورًا لا يغني عنه فيه غيره.

فقوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ النَّحْل: ٤٤ معطوف على خطاب تضمن شبهة لإنكار نبوته ﷺ؛ فناسب ذلك أن تأتي الآية بمعنى بيان أن في القرآن كل ما جاء به المرسلون قبل النبي ﷺ،

١ – يراجع: نظم الدرر (٢٣٥/١١)؛ وإرشاد العقل السليم (١٣٥/٥)؛ وروح المعاني (٤٥١/٧، ٤٥٢)؛ وتفسير التحرير والتنوير (١٤/ ٢٥٣، ٢٥٤).

٢ – يراجع: النبأ العظيم (ص:٢٣٣).

من البينات والزبر؛ ليكون أبلغ في إزالة شبهتهم، ويمكن أن يسمى هذا بمقام (البرهان).

وأما قوله تعالى:﴿ وَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِي ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِۖ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ﴾ النَّحْل : ٦٤ ، فآت في مقام إقامة الحجة عليهم، وإزالة علتهم؛ خشية أن يضلوا ويهلكوا، كما هلك من قبلهم من الأمم؛ فجاءت الآية بمعنى أن في القرآن تبيين ما اختلفوا فيه، مع كونه هدىً، ورحمةً للمؤمنين، ويمكن أن يسمى هذا بمقام (الرحمة).

وأما قوله تعالى: ﴿وَنَزَّلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ تِبۡيَٰنٗا لِّكُلِّ شَيۡءٖ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُسۡلِمِينَ ﴾ [النَّحْل : ٨٩]، فقد جاء في مقام تعداد ما أنعم الله تعالى على المؤمنين، من خلال نبيه ﷺ، في مقابلة شهادته على الكافرين؛ فجاءت الآية بمعنى نعم الله تعالى المضمنة في القرآن، من الإرشاد، والجزاء على الامتثال، وبيان بركات ونعم لهذا الكتاب، لا تنقطع، ويمكن أن يسمى هذا بمقام (الامتنان).

<u>المطلب الرابع: الترتيب في معنى "سوء عاقبة من أعرض عن الذكر" (في سورة طه):</u>

ورد معنى "سوء عاقبة من أعرض عن الذك" في سورة طه، في موضعين، والآيات هي: قوله تعالى:﴿ مَّنۡ أَعۡرَضَ عَنۡهُ فَإِنَّهُۥ يَحۡمِلُ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وِزۡرًا ﴾ طه : ١٠٠، وقوله تعالى:﴿ وَمَنۡ أَعۡرَضَ عَن ذِكۡرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةٗ ضَنكٗا وَنَحۡشُرُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ أَعۡمَىٰ ﴾ طه : ١٢٤.

وجاء قوله تعالى: ﴿ مَّنۡ أَعۡرَضَ عَنۡهُ فَإِنَّهُۥ يَحۡمِلُ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وِزۡرًا ﴾ طه : ١٠٠، عقب تنويهٍ بقصة سيدنا موسى، وإيماءٍ إلى أن ما يقص من أخبار الأمم مقصودٌ منه العبرة، والتذكرة، والإيقاظ لبصائر المشركين من العرب إلى موضع الاعتبار من قصة موسى عليه السلام، ثم أعقب ذلك بالتنويه بشأن القرآن؛

تحذيرًا لهم من الوقوع فيما وقع فيه قومه من الإعراض عن الذكر (القرآن) [١]؛ من خلال بيان جزاء من أعرض، بالكفر به، أو التكذيب له [٢].

وقد عبر النظم عن سوء عاقبة من أعرض عن الذكر في صورة بيانية، بتمثيل لملاقاة المشقة: ﴿ فَإِنَّهُۥ يَحۡمِلُ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وِزۡرًا ﴾ طـه : ١٠٠ ؛ أي: إثمًا؛ يستوجب عقوبة ثقيلة؛ بسبب إعراضه وسائر ذنوبه، وتسميتها وزرًا؛ لتشبيهها في ثقلها على المعاقَب، وصعوبة احتمالها، بالحمل الذي يُثقل الحامل ويُنقِضُ ظهره؛ أو لأنها جزاء الوزر، والأول أنسب بتسميتها (حملًا) [٣].

وجاء قوله تعالى: ﴿ وَمَنۡ أَعۡرَضَ عَن ذِكۡرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةٗ ضَنكٗا وَنَحۡشُرُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ أَعۡمَىٰ ﴾ طـه : ١٢٤ في سياق أحداث قصة سيدنا آدم –عليه السلام–، وذلك عقب الأمر بالهبوط إلى الأرض، وما تلا ذلك من تفصيل أحوال الناس؛ فمن اتبع هدى الله؛ فلا يضل ولا يشقى، ومن أعرض عن ذكر الله [٤]؛ فإن له معيشة ضنكًا (ضيقًا، نكدًا، شاقًا) [٥]، كما يُحشر يوم القيامة أعمى[١]؛ وهكذا

---

١ – يراجع: تفسير الطبري (٣٦٨/١٨)؛ وتأويلات أهل السنة (٣٠٧/٧)؛ والهداية إلى بلوغ النهاية (٤٦٩٦/٧)؛ والمحرر الوجيز (٦٣/٤).

٢ – يراجع: مفاتيح الغيب (٦٣/٤)؛ وتفسير التحرير والتنوير (٣٠١/١٦–٣٠٣).

٣ – يراجع: التفسير البسيط (٥١٥/١٤) تفسير الكشاف (٨٦/٣)؛ ونظم الدرر (٣٤٠/١٢)؛ وإرشاد العقل السليم (٤١/٦)؛ البحر المديد (٤١٨/٣)؛ وروح المعاني (٥٦٨/٨)؛ وتفسير التحرير والتنوير (٣٠٣/١٦).

٤ – تعددت الأقوال في المراد بالذكر؛ فقيل: هو القرآن؛ ويكون معنى الإعراض: من لم يؤمن بالقرآن، وقيل: هو الموعظة عامة. يراجع: الهداية إلى بلوغ النهاية (٤٧١١/٧)؛ والتفسير البسيط (٥٥٠/١٤).

٥ – تعددت الأقوال في محل تلك المعيشة؛ فقيل: في الدنيا، وقيل: في الآخرة في جهنم، وقيل: في القبر؛ فتكون بمعنى عذاب القبر. يراجع: الهداية إلى بلوغ النهاية (٤٧١١/٧)؛ والتفسير البسيط (٥٥٠/١٤).

ترتب على الإعراض عن الذكر اختلال حال المعرض في الدنيا والآخرة. ومقصود الآية: بيان سوء عاقبة من أعرض عن ذكر الله وطاعته [٢].

وقد سلك نظم الآية نمط الشرط والجزاء، المتسق مع كون مضمون الآية عاقبةً، وجزاءً.

ويلاحظ اتفاق الموضعين في معنى سوء عاقبة من أعرض عن الذكر، وتمايزهما في كون الذكر في الموضع الأول مرادًا به (القرآن) اتفاقًا، بخلاف الموضع الثاني؛ فإن له إطلاقين عامًا، وخاصًا؛ فما وجه ترتيبهما في السورة؟

والجواب: أن وجه الترتيب بين الموضعين في السورة (تصاعدي) من الخاص إلى العام؛ فقوله تعالى: ﴿ مَّنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وِزْرًا ﴾ طه : ١٠٠ ، خاص بسوء عاقبة من أعرض عن الذكر يوم القيامة؛ وذلك لأنه يتعلق بذكر خاص (القرآن)، وكذلك المخاطبون بهذا التحذير، بينما سوء العاقبة في قوله تعالى: ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ ﴾ طه : ١٢٤ عام، شامل للدنيا، ويوم القيامة، وهو يشبه أن يكون سنة ربانية؛ بدلالة وروده ضمن سياق قصة سيدنا آدم –عليه السلام–.

=

١ – تعددت الأقوال في المراد بالعمى؛ فقيل: عمى البصر، وقيل: عمى الحجة والبصيرة، والأول أرجح؛ لأن عمى البصيرة حاصل للكافر في الوجهين. يراجع: التفسير البسيط (٥٥٢/١٤)؛ والمحرر الوجيز (٦٨/٤).

٢ – يراجع: الهداية في بلوغ النهاية (٤٧١١/٧)؛ ولطائف الإشارات (٤٨٥/٢)؛ والتفسير البسيط (٥٥١/١٤، ٥٥٢)؛ وروح المعاني (٨/ ٥٨٥)؛ وتفسير التحرير والتنوير (٣٣١/١٦).

المطلب الخامس: الترتيب في معنى "سوء عاقبة الذين يحادون الله ورسوله" (في سورة المجادلة):

ورد معنى "سوء عاقبة الذين يحادون الله ورسوله " في سورة المجادلة، في موضعين، والآيات هي: قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ كُبِتُواْ كَمَا كُبِتَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ﴾ [المُجَادلَة : ٥]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ٱلۡأَذَلِّينَ ٢٠﴾ [المُجَادلَة : ٢٠].

وقد جاء قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ كُبِتُواْ كَمَا كُبِتَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ﴾ [المُجَادلَة : ٥] عقب ذكر المؤمنين الواقفين عند حدود الله؛ فأتت هذه الآية بذكر المحادين[1] المخالفين لها، وجزائهم ﴿كُبِتُواْ كَمَا كُبِتَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ﴾ [2].

---

١ – تنوعت أقوال المفسرين في معنى (المحادة) في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾؛ فقيل: يعادون الله ورسوله، وقيل: المحادّ هو الذي يجعل نفسه في حد غير الحد الذي أمره الله ورسوله، وقيل: يخالفون الله في حدوده وفرائضه فيجعلون لأنفسهم حدوداً غير حدوده؛ وهو قريب من الذي قبله، وقيل: المحادة المشاقة والمحاربة، وقيل: معناه يحادون أولياء الله؛ على تقدير حذف مضاف. يراجع: تفسير الطبري (٢٣/٢٣٥)؛ وتأويلات أهل السنة (٩/ ٥٦٥)؛ والهداية الى بلوغ النهاية (١١/ ٧٣٥٨)؛ والجامع لأحكام القرآن، أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي شمس الدين القرطبي (القاهرة: دار الكتب المصرية، الثانية، ١٣٨٤هـ – ١٩٦٤م) (١٧/٢٨٨)؛ وملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل في توجيه المتشابه اللفظ من آي التنزيل، أبو جعفر أحمد بن إبراهيم بن الزبير الثقفي الغرناطي، أبو جعفر (بيروت: دار الكتب العلمية، د. ط. ت).

٢ - يراجع: الجامع لأحكام القرآن (١٧/٢٨٨). وقد تنوعت أقوال المفسرين في معنى (الكبت) في قوله تعالى: ﴿كُبِتُواْ كَمَا كُبِتَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ﴾؛ فقيل: غيظوا وأخزوا، وقيل: غلبوا وردوا بغير حاجتهم، وقيل: أهلكوا كما أهلك الذين من قبلهم، وقيل: غيظوا يوم الخندق، =

وقد تضافرت أنماط النظم على تحقيق مقصود الآية (بيان سوء عاقبة من حاد الله ورسوله)؛ وذلك من خلال تأكيد الجملة، والتعبير بالموصول؛ لإفادة العموم، وإيثار الفعل المضارع؛ لإفادة المداومة المناسبة لاستحقاق العذاب، وكذلك نظم جزائهم على البناء للمفعول، وإلحاقهم بأزواجهم في المصير [1].

ويستفاد من أقوال المفسرين في الآية أن مفهوم المحادة عام لا حدود؛ بحيث يشمل كل ما يصدق عليه، وحتى سار مضمون الآية والتي بعدها سنة ربانية جارية؛ مما يستدعي الحذر، والتنبه.

يقول الإمام القشيري: "وقد أجرى الله سنّته بالانتقام من أهل الإجرام فمن ضيّع للرسول سنّة، وأحدث في دينه بدعة؛ انخرط في هذا السلك، ووقع في هذا الذّلّ" [2].

وجاء قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ فِى ٱلْأَذَلِّينَ﴾ [المُجَادلَة : ٢٠] عقب سياق طويل تناول التعجيب من حال الذين تولوا قوما غضب الله عليهم، وبعض صفاتهم، وأحوالهم، وسوء عاقبتهم، وبعض أعمالهم

=

وقيل: يوم بدر؛ كما غيظ الذين من قبلهم ممن قاتل الأنبياء، وقيل: أذلوا وخذلوا.. وكله قريب بعضه من بعض. يراجع: تفسير الطبري (٢٣/٢٣٥)؛ وتأويلات أهل السنة (٩/ ٥٦٦)؛ والهداية الى بلوغ النهاية (١١/ ٧٣٥٨)؛ ولطائف الإشارات (٣/ ٥٥٠). واختلف في المراد بفاعل المحادة المقصود في (يحادون)؛ فقيل: المنافقون، وقيل: عموم المشركين. يراجع: تأويلات أهل السنة (٩/ ٥٦٦)؛ والتفسير البسيط (٢١/٣٣٩، ٣٤٠)؛ ومفاتيح الغيب (٢٩/ ٤٨٨)، ورجّح الإمام ابن عطية نزولها في المنافقين، وقوم من اليهود، كانوا في المدينة يتمرسون برسول الله ﷺ، والمؤمنين، ويتربصون بهم الدوائر، ويدبرون عليهم، ويتمنون فيهم المكروه، ويتناجون بذلك. المحرر الوجيز (٥/٢٧٥).

١ – يراجع: نظم الدرر (١٩/٣٥٥).

٢ – لطائف الإشارات (٣/٥٥٠).

الموجبة لسوء العاقبة، فجاءت الآية لتبين سوء عاقبة الذين يحادون الله – تعالى– عمومًا، ومن ضمنهم من تناولتهم الآيات قبلها؛ فكانت بمثابة الإجمال، والتوكيد لمضمون ما سبق.

وقد بينت الآية سوء عاقبة الذين يحادون الله ورسوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ فِي ٱلْأَذَلِّينَ﴾ (١).

ويلاحظ بناء نظم سوء العاقبة في الآية الثانية على نمط الجملة الاسمية، الدالة على الثبوت، والظرفية، وجمع الذكور، الدال على العموم.

ويتسق نظم الآيتين مع مقصود السورة من "الإعلام بإيقاع البأس الشديد، الذي أشارت إليه الحديد بمن حاد الله ورسوله؛ لما له سبحانه من تمام العلم، اللازم عنه تمام القدرة، اللازم عنه الإحاطة بجميع صفات الكمال" (٢).

وكما هو ظاهر فالآيتان تتفقان في الجملة الأولى (المسند إليه) ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ﴾، وتشتركان في ترتب عاقبة سوءٍ، في كل منهما، لكنها ليست واحدة فيهما؛ مما يثير التساؤل حول وجه الترتيب بينهما، باعتبارهما يشكلان فصلًا واحدًا من المعاني.

والجواب: أن وجه الترتيب بين الآيتين (تصاعدي)؛ وذلك أن العاقبة في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ كُبِتُواْ كَمَا كُبِتَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ [المُجَادلَة : ٥] مناسبة للوجود الخارجي في واقع الحياة، وفي الدنيا؛ وذلك في

---

١ – تنوعت أقوال المفسرين في معنى (الأذلين) في الآية؛ فقيل: في أهل الذلة؛ لأن الغلبة لله ورسوله. وقيل: في الأسفلين، وقيل: في المهزومين، وقيل: في الآخرين، وقيل: هو في الآخرة، ومنهم من يقول: ذلك في الدارين جميعًا هم الأذلاء، وقيل: في جملة من هو أذل خلق الله لا ترى أحدا أذل منهم. يراجع: تفسير الطبري (٢٣/ ٢٥٦)؛ وتأويلات أهل السنة (٩/ ٥٧٧)؛ والتفسير البسيط (٢١/ ٣٥٦)؛ وتفسير الكشاف (٤/٤٩٦).

٢ – مصاعد النظر (٣/ ٦٨).

مقابلة تعزز هؤلاء وارتكابهم المحادة والمشاقة، وقد تحقق هذا المعنى؛ حين كبتوا وأذلوا في غزوة بدر، وغيرها من انتصارات المسلمين، وفتوحهم؛ فتحقق بذلك المقام (الأولي) للمعنى، وهناك مقام وسط بين الآيتين، يدل عليه نظم الآيات بينهما، وهو مقام (التمادي) من أولئك المتوعدين في الآية الأولى، في محادتهم، وهو مقام –لا شك– يمثل مرحلة متصاعدة، في السلوك المستوجب لسوء العاقبة؛ مما يجعلهم مستحقين سوء العاقبة (الأعلى)، الذي أفادته الآية الثانية: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ فِى ٱلْأَذَلِّينَ﴾ [المُجَادلَة : ٢٠]، ويكون المحكوم به في هذه الآية قضاءً مبرمًا، على نحو قوله تعالى: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ۖ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [البَقَرَة : ٧]؛ بدلالة تعقيبها بقوله تعالى: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾ [المُجَادلَة : ٢١] (١).

١ – يراجع: ملاك التأويل (٢/ ٤٧٠).

الخاتمة

– أولا : نتائج البحث:

أسفرت هذه الدراسة الموجزة عن عدد من النتائج، أهمها:

١– أن لفكرة ترتيب المعاني منزلة مهمة في الدرس اللغوي، بمستوييه النحوي، واللغوي العام.

٢– أن لفكرة ترتيب المعاني دورًا أساسًا، في تكوين فكرة النظم، وتعتبر أحد معايير دقة النظم، وجودته، ولها منزلة مهمة في الدرس البلاغي.

٣– أن لفكرة ترتيب المعاني شهودًا وحضورًا في فكر المفسرين (مثل: الإمام الرازي)، ودرسهم التفسيري، وفي بحوث علوم القرآن، من المناسبات، والإعجاز، وغيرهما.

٤– لترتيب المعاني بين المواضع المتعددة من الآيات على مستوى القرآن الكريم كله وجوه من العلاقات، منها: الترتيب التصاعدي من الأدنى إلى الأعلى – الإجمال والتفصيل – التفصيل والإجمال – السببية.

٥– لترتيب المعاني بين المواضع المتعددة من الآيات على مستوى السورة الواحد وجوه من العلاقات، منها: الترتيب التصاعدي من الأدنى إلى الأعلى – الإجمال والتفصيل – التكامل – الترتيب التصاعدي من الخاص إلى العام.

– ثانيا : توصيات البحث:

١– دراسة فكرة ترتيب المعاني في إطار بيني، يجمع بين الدرسين التفسيري، وعلم الكلام.

٢– تناول فكرة ترتيب المعاني في بحوث علمية، يختص كل واحد منها بباب واحد من المعاني في القرآن الكريم، نحو: "معنى حال السماء وأوصافها يوم القيامة".

ثبتٌ بالمراجع والمصادر

- الإتقان في علوم القرآن، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، د. ط، ١٣٩٤هـ- ١٩٧٤م).
- أحكام القرآن، القاضي أبو بكر محمد بن عبد الله، المعروف بابن العربي المعافري الاشبيلي المالكي (بيروت: دار الكتب العلمية، الثالثة، ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م).
- الأدب الصغير والأدب الكبير، عبد الله بن المقفع (بيروت: دار صادر، د. ط، ١٩٦٤م).
- إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، أبو السعود محمد بن محمد بن مصطفى العمادي (بيروت: دار إحياء التراث العربي، د. ط. ت).
- أساس البلاغة، أبو القاسم جار الله، محمود بن عمرو بن أحمد، الزمخشري (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤١٩هـ - ١٩٩٨م).
- أسباب نزول القرآن، أبو الحسن علي بن أحمد بن محمد بن علي الواحدي، النيسابوري، الشافعي (الدمام: دار الإصلاح، الثانية، ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م).
- استخراج الجدال من القرآن الكريم، أبو الفرج ناصح الدين عبد الرحمن بن نجم بن عبد الوهاب الجزري السعدي العبادي، الحنبلي (الرياض: مطابع الفرزدق التجارية، الثانية، ١٤٠١هـ).
- أسرار البلاغة في علم البيان، أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد الجرجاني (بيروت: دار الكتب العلمية، الأولى، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م)، (القاهرة–جدة: مطبعة المدني، دار المدني).
- الأصول في النحو، أبو بكر محمد بن السري بن سهل النحوي المعروف بابن السراج (بيروت: مؤسسة الرسال، د. ط. ت).
- الأطول شرح تلخيص مفتاح العلوم، عصام الدين إبراهيم بن محمد ابن عربشاه الحنفي (بيروت: دار الكتب العلمية، د.ط.ت).

- إعجاز القرآن، الإمام أبو بكر محمد بن الطيب الباقلاني (القاهرة: دار المعارف، الخامسة، ١٩٩٧م).
- أمالي ابن الحاجب، أبو عمرو جمال الدين عثمان بن عمر بن أبي بكر بن يونس، المعروف بابن الحاجب الكردي المالكي (عمَّان –بيروت: دار عمار – دار الجيل، الأولى، ١٤٠٩هـ – ١٩٨٩م).
- أمالي ابن الشجري، ضياء الدين أبو السعادات هبة الله بن علي بن حمزة، المعروف بابن الشجري (القاهرة: مكتبة الخانجي، القاهرة، الأولى، ١٤١٣هـ–١٩٩١م).
- أنوار التنزيل وأسرار التأويل، القاضي ناصر الدين أبو سعيد عبد الله بن عمر البيضاوي (بيروت: دار إحياء التراث العربي، الأولى– ١٤١٨هـ).
- إيجاز البيان عن معاني القرآن، أبو القاسم، نجم الدين محمود بن أبى الحسن بن الحسين النيسابوري (بيروت: دار الغرب الإسلامي، الأولى، ١٤١٥هـ).
- الإيضاح في علوم البلاغة، أبو المعالي جلال الدين محمد ابن عبد الرحمن القزويني الشافعي (بيروت: دار الجيل، الثالثة، د.ت).
- البحر المحيط في التفسير، الإمام أثير الدين أبو حيان محمد بن يوسف بن علي ابن يوسف بن حيان الأندلسي (بيروت: دار الفكر، د. ط، ١٤٢٠هـ).
- البحر المديد في تفسير القرآن المجيد، الإمام أبو العباس أحمد بن محمد بن المهدي ابن عجيبة الحسني (القاهرة: طبعة الدكتور حسن عباس زكي، الأولى، ١٤١٩ هـ).
- البرهان في علوم القرآن، أبو عبد الله بدر الدين محمد بن عبد الله بن بهادر الزركشي (القاهرة: دار إحياء الكتب العربية عيسى البابي الحلبي وشركاه، الأولى، ١٣٧٦هـ – ١٩٥٧م).

- بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز، مجد الدين أبو طاهر محمد بن يعقوب الفيروزآبادى (القاهرة: المجلس الأعلى للشئون الإسلامية – لجنة إحياء التراث الإسلامي، الأولى، من ١٩٧٣-١٩٩٦م).
- البلاغة العربية المفترى عليها بين الأصالة والتبعية، أ.د فضل حسن عباس،(عمّان: دار الفرقان، الثانية، ١٤٢٠هـ-١٩٩٩م).
- البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري وأثرها في الدراسات البلاغية، أ.د محمد محمد أبو موسى (القاهرة: دار الفكر العربي، القاهرة، د.ط.ت).
- البلاغة فنونها وأفنانها، أ.د فضل حسن عباس (عمَّان: دار الفرقان، الأولى، ١٩٨٥م).
- البيان في إعجاز القرآن، أبو سليمان حمد بن محمد بن إبراهيم بن الخطاب البستي، المعروف بالخطابي، مطبوع ضمن: ثلاث رسائل في إعجاز القرآن (القاهرة: دار المعارف بمصر، الثالثة، ١٩٧٦م).
- البيان والتبيين، أبو عثمان عمرو بن بحر بن محبوب الكناني بالولاء، الليثي، الشهير بالجاحظ (بيروت: دار ومكتبة الهلال، د. ط، ١٤٢٣هـ).
- تاج العروس من جواهر القاموس، محمد مرتضى الزبيدي (الكويت: دار الهداية، الأولى، ١٣٨٥هـ- ١٩٦٥م).
- تأويلات أهل السنة، الإمام أبو منصور محمد بن محمد بن محمود الماتريدي (بيروت: دار الكتب العلمية، الأولى، ١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م).
- التسهيل لعلوم التنزيل، أبو القاسم، محمد بن أحمد بن محمد بن عبد الله، ابن جزي الكلبي الغرناطي (بيروت: شركة دار الأرقم بن أبي الأرقم، الأولى - ١٤١٦هـ).
- تفسير ابن فورك، أبو بكر محمد بن الحسن بن فورك الأنصاري الأصبهاني (مكة المكرمة: جامعة أم القرى، الأولى، ١٤٣٠ هـ- ٢٠٠٩م).

- التَّفْسِيرُ البَسِيْط، أبو الحسن علي بن أحمد بن محمد بن علي الواحدي، النيسابوري، الشافعي (الرياض: عمادة البحث العلمي – جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الأولى، ١٤٣٠هـ).
- تفسير التحرير والتنوير، العلامة محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي (تونس: التونسية للنشر، د. ط، ١٩٨٤م).
- تفسير القرآن العظيم، الحافظ أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري، ثم الدمشقي (بيروت: دار الكتب العلمية، الأولى، ١٤١٩هـ).
- تهذيب اللغة، أبو منصور محمد بن أحمد بن الأزهري الهروي (بيروت: دار إحياء التراث العربي، الأولى، ٢٠٠١م).
- جامع البيان في تأويل القرآن، الإمام أبو جعفر محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي، الطبري (بيروت: مؤسسة الرسالة، الأولى، ١٤٢٠هـ – ٢٠٠٠م).
- الجامع لأحكام القرآن، أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي شمس الدين القرطبي (القاهرة: دار الكتب المصرية، الثانية، ١٣٨٤هـ – ١٩٦٤م).
- جمهرة اللغة، أبو بكر محمد بن الحسن بن دريد الأزدي (بيروت: دار العلم للملايين، الأولى، ١٩٨٧م).
- خصائص التراكيب: دراسة تحليلية لمسائل علم البيان، أ.د محمد محمد أبو موسى (القاهرة: مكتبة وهبة، الرابعة، ١٤١٦هـ–١٩٩٦م).
- دراسة الأسلوب بين المعاصرة والتراث، أ.د أحمد درويش (القاهرة: مكتبة الزهراء، الأولى، د.ت).
- دلائل الإعجاز، أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد الجرجاني (بيروت: دار الكتب العلمية، الأولى،١٤٢٢هـ – ٢٠٠١ م).

- دلائل النظام، عبد الحميد الفراهي الهندي (الهند: المطبعة الحميدية، الأولى، ١٣٨٨هـ).
- رسائل الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر بن محبوب الكناني بالولاء، الليثي، الشهير بالجاحظ (القاهرة: مكتبة الخانجي، القاهرة، الأولى، ١٣٨٤هـ-١٩٦٤م).
- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، شهاب الدين محمود بن عبد الله الحسيني الألوسي (بيروت: دار الكتب العلمية، الأولى، ١٤١٥هـ).
- زهرة التفاسير، الشيخ محمد أبو زهرة (القاهرة: دار الفكر العربي، د.ط.ت) .
- شرح جوهرة التوحيد، الإمام العلامة الشيخ إبراهيم بن محمد الباجوري (دمشق: دار المصطفى، الأولى، ١٤٣١هـ-٢٠١٠م).
- شرح كتاب سيبويه الحسن بن عبد الله بن المرزبان، أبو سعيد السيرافي (بيروت: دار الكتب العلمية، الأولى، ٢٠٠٨م).
- الصحاح، أبو نصر إسماعيل بن حماد الجوهري الفارابي (بيروت: دار العلم للملايين، الرابعة ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م).
- الطراز لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز، يحيى بن حمزة بن علي بن إبراهيم، الحسيني العلويّ الطالبي، الملقب بالمؤيد باللّه (بيروت: المكتبة العصرية، الأولى، ١٤٢٣هـ).
- عبد القاهر الجرجاني ونظرية النظم، أ.د/ عبد القادر حسين، (بيروت: مجلة الفكر العربي، معهد الإنماء العربي، مجلد ٨، العدد ٤٦، ١٩٨٧م).
- عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح، أبو حامد بهاء الدين أحمد بن علي بن عبد الكافي السبكي (بيروت: المكتبة العصرية للطباعة والنشر، الأولى، ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٣م).

- العمدة في محاسن الشعر وآدابه، أبو على الحسن بن رشيق القيرواني الأزدي (بيروت: دار الجيل، الخامسة، ١٤٠١هـ - ١٩٨١م).
- عِنَايةُ القَاضِى وكِفَايةُ الرَّاضِى (حَاشِيةُ الشِّهَابِ عَلَى تفْسيرِ البَيضَاوِي)، شهاب الدين أحمد بن محمد بن عمر الخفاجي المصري الحنفي (بيروت: دار صادر، د. ط. ت).
- فتوح الغيب في الكشف عن قناع الريب (حاشية الطيبي على الكشاف)، شرف الدين الحسين بن عبد الله الطيبي (دبي: جائزة دبي الدولية للقرآن الكريم، الأولى، ١٤٣٤ هـ - ٢٠١٣ م).
- الفروق اللغوية، أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل بن سعيد بن يحيى بن مهران العسكري (القاهرة: دار العلم والثقافة للنشر والتوزيع، د. ط. ت).
- القاموس المحيط، مجد الدين أبو طاهر محمد بن يعقوب الفيروزآبادى، (بيروت: مؤسسة الرسالة، الثامنة، ١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م).
- قضايا في إحكام النظم القرآني، د. يوسف بن عبد الله العليوي (الرياض: مجلة العلوم العربية، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، العدد ٤٣، ١٤٣٨هـ-٢٠١٦م).
- الكتاب (كتاب سيبويه)، أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر الحارثي بالولاء، الملقب سيبويه (القاهرة: مكتبة الخانجي، الثالثة، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م).
- كتاب التعريفات، علي بن محمد بن علي الزين، الشريف الجرجاني (بيروت: دار الكتب العلمية، الأولى، ١٤٠٣هـ -١٩٨٣م).
- كتاب الصناعتين، أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل بن سعيد بن يحيى بن مهران العسكري (بيروت: المكتبة العصرية، د. ط، ١٤١٩هـ).
- الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، أبو القاسم محمود بن عمر بن أحمد الزمخشري، (بيروت: دار الكتاب العربي، الثالثة، ١٤٠٧ هـ).

- لطائف الإشارات، الإمام أبو القاسم عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك القشيري (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، الثالثة، د.ت).
- اللغة العربية معناها ومبناها، أ.د تمام حسان عمر (بيروت: دار عالم الكتب، الخامسة، ١٤٢٧هـ-٢٠٠٦م).
- المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز (بيروت: دار الكتب العلمية، الأولى، ١٤٢٢هـ).
- المحيط في اللغة، أبو القاسم إسماعيل بن عباد (بيروت: دار عالم الكتب، الأولى، ١٤١٤هـ -١٩٩٤م)
- مداخل إعجاز القرآن، أبو فهر محمود محمد شاكر (القاهرة-جدة: مطبعة المدني ومكتبتها، د. ط. ت).
- معاني القرآن وإعرابه، أبو إسحاق إبراهيم بن السري المعروف بالزجاج (بيروت: دار عالم الكتب، الأولى ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م).
- معاني القرآن، أبو زكريا يحيى بن زياد بن عبد الله بن منظور الديلمي الفراء (القاهرة: الدار المصرية للتأليف والترجمة، الأولى، د. ت).
- المعاني الكبير في أبيات المعاني، أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري (بيروت: دار الكتب العلمية، الأولى، ١٤٠٥هـ - ١٩٨٤م).
- المعجم الاشتقاقي المؤصل، أ.د محمد محمد حسن جبل (القاهرة: مكتبة الآداب، ٢٠١٠م).
- معجم العين، الخليل بن أحمد الفراهيدي (بيروت: دار ومكتبة الهلال، الأولى، د.ت).
- المعجم الفلسفي، د. جميل صليبا (بيروت: دار الكتاب اللبناني، الأولى، ١٩٨٢م).
- معجم اللغة العربية المعاصرة، أ.د أحمد مختار عمر بمساعدة فريق عمل (بيروت: دار عالم الكتب، ١٤٢٩هـ- ٢٠٠٨م).

- معجم مقاليد العلوم في الحدود والرسوم، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر، السيوطي (القاهرة: مكتبة الآداب، الأولى، ١٤٢٤هـ – ٢٠٠٤م).
- معجم مقاييس اللغة، أبو الحسين أحمد بن فارس (بيروت: دار الفكر، د.ط، ١٣٩٩هـ – ١٩٧٩م).
- المعنى القرآني معالم الطريق إلى فقهه في سياق السورة: رؤية منهجية ومقاربة تأويلية، أ.د محمود توفيق سعد (القاهرة: مكتبة وهبة، الأولى، ١٤٤٢هـ–٢٠٢١م).
- المغني في أبواب التوحيد والعدل، القاضي أبو الحسن عبد الجبار بن أحمد الأسدآبادي (القاهرة: الشركة العربية، الأولى، ١٣٨٠هـ).
- مفاتيح الغيب، أبو عبد الله فخر الدين محمد بن عمر الرازي (بيروت: دار إحياء التراث العربي، الثالثة،١٤٢٠هـ).
- مفتاح العلوم، أبو يعقوب يوسف بن أبي بكر بن محمد بن علي السكاكي الخوارزمي الحنفي (بيروت: دار الكتب العلمية، بيروت، الثانية، ١٤٠٧هـ – ١٩٨٧م).
- المفردات في غريب القرآن، أبو الحسين الراغب الأصفهاني (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤١٩هـ – ١٩٩٨م).
- المقتضب، أبو العباس محمد بن يزيد بن عبد الأكبر الثمالي الأزدي، المعروف بالمبرد (بيروت: عالم الكتب، د. ط. ت).
- ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل في توجيه المتشابه اللفظ من آي التنزيل، أبو جعفر أحمد بن إبراهيم بن الزبير الثقفي الغرناطي، أبو جعفر (بيروت: دار الكتب العلمية، د. ط. ت).
- من بلاغة القرآن، د. أحمد أحمد بدوي (القاهرة: نهضه مصر، د. ط، ٢٠٠٥م) .

- النبأ العظيم نظرات جديدة في القرآن الكريم، أ.د/ محمد عبد الله دراز (الدمّام: مكتبة المتنبي، الأولى، ١٤٤٠هـ- ٢٠١٩م).
- نتائج الفكر في النحو، أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله بن أحمد السهيلي (بيروت: دار الكتب العلمية، الأولى: ١٤١٢هـ- ١٩٩٢م).
- نظرية النظم بين المعتزلة والأشاعرة، أ.د/ أحمد أبو زيد (المغرب: بحوث ندوة المصطلح النقدي وعلاقته بمختلف العلوم، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة سيدي محمد بن عبد الله، فاس المغرب، ١٩٨٨م).
- نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، برهان الدين إبراهيم بن عمر البقاعي (القاهرة: دار الكتاب الإسلامي، د. ط. ت).
- النظم القرآني وأثره على مقاصد التنزيل الحكيم، د. رجاء محمد عودة (الرياض: مجلة جامعة الملك سعود، المجلد ١١، العدد ١، ١٩٩٩م).
- النكت والعيون، أبو الحسن علي بن محمد بن محمد بن حبيب البصري البغدادي، الشهير بالماوردي (بيروت: دار الكتب العلمية، د. ط. ت).
- نكت وتنبيهات في تفسير القرآن المجيد، أبو العباس البسيلي التونسي (المغرب: منشورات وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية، الأولى، ١٤٢٩هـ - ٢٠٠٨م).
- الهداية إلى بلوغ النهاية، الإمام أبو محمد مكي بن أبي طالب القيرواني، ثم الأندلسي القرطبي المالكي (الشارقة: جامعة الشارقة، الأولى، ١٤٢٩هـ - ٢٠٠٨م).